السيادة العربية

والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية

تأليف

«فان فلوتن»

La Domination Arabe, le Chi' itisme et les Croyances Messianiques sous le Khalifat des Omayades, Par G. Van Vloten.

ترجمه عن الفرنسية وعلق عليه

الدكتور حسن ابراهيم حسن
مدير جامعة أسيوط السابق ـ أستاذ بمعهد
الدراسات الإسلامية ـ جامعة بغداد

محمد زكي ابراهيم
إجازة التخصص فى التاريخ والأخلاق
(شعبة الفلسفة) من كلية اللغة العربية
بجامعة الآزهر

الطبعة الثانية

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

١٩٦٥

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير — القاهرة
ت ٩٠٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

طالما كان يشير الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد فى محاضراته بجامعة لندن إلى كتاب « فان فلوتن » حين كنت طالباً بقسم التاريخ الإسلامى بهذه الجامعة . ولما انصرفت للبحث وإعداد رسالتى لامتحان الدكتوراه ، كان هذا الكتاب من أهم المصادر التى اعتمدت عليها ولا سيما فيما كتبته عن الشيعة . ولما ذهبت إلى مدينة ليدن بهولندة للبحث والاطلاع على بعض المخطوطات أردت اقتناء نسخة من هذا الكتاب لنفسى . فلم أستطع تحقيق هذه الأمنية ، على حين أنه لم يمض على طبعه إلا ثلاث وثلاثون سنة . ولم أجد منه سوى نسخة واحدة بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن . فلما أتممت دراستى وعدت إلى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٨ ندبت لتدريس التاريخ الاسلامى بقسم التخصص بالجامعة الأزهرية حيث يفرض على طلبة السنة النهائية تقديم بحث فى الموضوع الذى يتخصصون فيه . وقد اختار شريكى الشيخ محمد زكى إبراهيم « الدولة الأموية بين عوامل الانحلال والفناء » موضوعا لرسالته ، فأشرت عليه بالرجوع إلى كتاب « فان فلوتن » والاعتماد عليه فى بحثه . وهكذا أفاد كل من الأستاذ والتلميذ من هذا الكتاب فى رسالته . لذلك اتفقت رغبتنا على نقله إلى اللغة العربية ليستفيد منه الناطقون بالضاد .

* * *

وقد عالج المؤلف فى كتابه ناحية من نواحى التاريخ الإسلامى قلما سبقه إليها أحد من المستشرقين . ولا غرو فقد أمدنا بطائفة قيمة من المواضيع

الجديرة بالبحث فى تاريخ الدولة الأموية : من ذلك ما كتبه عن الخراج ، وحالة الموالى السياسية والاجتماعية ، وسياسة عمر بن عبد العزيز نحوهم وأثرها ، ثم عن الثورات التى أذكى نارها الخوارج . كما أفرد بابا مطولا عن الشيعة ، وعقائدها ، وطوائفها المختلفة ، وعن غيرها من الفرق الدينية كالخرمية والراوندية ، وبين إلى أى حد استفاد العباسيون من قيام هذه الطوائف المختلفة فى نشر دعوتهم فى العراق ثم فى خراسان . وقد فطن المؤلف إلى مالم يفطن إليه غيره من المؤرخين من أسباب سقوط الأمويين ، فأفرد بابا طويلا تكلم فيه عن العقائد غير الإسلامية التى أخذها المسلمون عن المسيحية واليهودية وغيرهما من العقائد الفارسية القديمة ـ وهو مايسميه علماء المسلمين «الإسرائيليات» ولا سيما ما يتعلق منها بالتنبؤ بمصير العالم ، ورجعة عيسى بن مريم وظهور الدجال . كذلك أفاض المؤلف الكلام عن عقيدة المهدى وأثرها فى سقوط الدولة الأموية . وبالاختصار فقد أرجع «فان فلوتن» سر انتصار العباسيين إلى ثلاثة عناصر هامة : (١) الكراهة المستأصلة التى كان يكنها أهل البلاد المغلوبة للفاتحين من العرب (٢) الشيعة وهم أنصار أهل البيت (٣) انتظار مخلِّص أو هاد Messie .

وقد سلك المؤلف فى بحث هذه الموضوعات طريقة تحليلية دقيقة ، كما ناقش المصادر العربية ومحص ما ورد فيها من الحقائق التاريخية تمحيصاً يدل على دقة البحث وسعة الإطلاع ، كما يتبين ذلك من المصادر العربية والأفرنجية الكثيرة التى اعتمد عليها . ومما يمتاز به هذا الكتاب أن مؤلفه لم يقتصر فى بحثه على الكتب التاريخية فحسب ، بل استعان على كشف بعض المسائل بالقرآن الكريم وكتب السنة والأدب والمذاهب .

* * *

ولم يقتصر عملنا على مجرد نقل الكتاب إلى اللغة العربية ، بل عنينا فى الوقت نفسه بنقد بعض ماذهب إليه المؤلف من الآراء التى لا تتفق والبحث التاريخى النزيه . من ذلك ماذهب إليه من القول بأن الإسلام قد انتشر عن طريق الإرهاب لا عن طريق الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة ، كذلك ماذكره المؤلف من بغض أهالى البلاد التى فتحها العرب للإسلام ومحاولتهم الارتداد عنه ، وأن المسلمين كانوا يضطهدون أهالى البلاد التى فتحوها ، وهو مالا يتفق مع روح الإسلام وخلق الرسول الكريم وخلفائه من بعده . يؤيد ذلك قوله تعالى فى نبيه (وإنك لعلى خلق عظيم) (فبما رحمةٍ من الله لنتَ لهم . ولو كنتَ فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) ، ثم قوله عليه الصلاة والسلام « ألا كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته . فالإمام الذى على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعيـة على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، ثم ماذكره ابن عبد الحكم « من أن رجلا من أهل مصر أتى إلى عمر ابن الخطاب فقال : ياأمير المؤمنين ! عائذ بك من الظلم . قال : عذتَ بمعاذ . قال سابقتُ ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه ، فقدم . فقال عمر : أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين . ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو . قال : ياأمير المؤمنين ! إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيتُ منه . فقال عمر لعمرو مُذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ قال : ياأمير المؤمنين ! لم أعلم ولم يأتنى » .

كذلك عنينا بشرح بعض ما ورد بالكتاب من المسائل التى قد يستعصى على القارىء فهمها . من ذلك شرح مذاهب الإشراقية أو اللاأدرية ، والمانوية والبابية ! والإسرائليات ، ثم شرح بعض الألفاظ العربية وبيان بعض البلدان كما رجعنا إلى المصادر العربية التى أخذ عنها المؤلف وتصحيح ماأخطأ فى نقله . كذلك حرصنا على نقل العبارات المقتبسة بنصها من المصادر العربية . وقد اقتصر المؤلف على تقسيم كتابه إلى ثلاثة أبواب ، كل منها يشتمل على فصول أكتفى بالإشارة إلى كل منها برقم لاتينى . لذلك عنينا بوضع عناوين لكل فصل من فصول الكتاب ، حتى يسهل على القارىء معرفة الموضوع الذى يتكلم عنه المؤلف ، كما يسهل على الباحث أيضاً الاهتداء إلى المسائل التى يريد بحثها . وقد أشرنا إلى النقد والتعليقات والشروح التى أتينا عليها بعلامة × أو × × .

ومما يؤخذ على هذا الكتاب خلوه من فهرس يسهل على القارىء استقصاء الحوادث التاريخية . لذلك عنينا عناية خاصة بعمل فهرس للأعلام والمصادر والبلدان وغيرها من الأسماء التى تدل على حوادث تاريخية هامة . وقد أعنتنا عنتا شديداً فى نقل هذا الكتاب وضع المؤلف له باللغة الفرنسية ، تلك اللغة التى كان لايحسن التعبير بها كما صرح بذلك فى مقدمته .

* * *

وعلى الرغم من ذلك فالكتاب فى جملته كنز ثمين يدل على ما امتاز به المؤلف من دقة البحث وسعة الإطلاع وتقصى الحقائق . وهو مما لا يستغنى عنه المشتغلون بالتاريخ الإسلامى فى البلاد الإسلامية ، كما يستفيد منه المستشرقون أنفسهم ولا سيما من تلك التعليقات التى ألقت قبسا من النور على كثير من المسائل التى تصدى المؤلف لبحثها . وقد استعنا فى ذلك بكثير من كتب التاريخ والفقه

والحديث والمذاهب ، وكذا المصادر الإفرنجية مما يزيد — بلا ريب — فى قيمة الكتاب من الوجهة التاريخية . وقد اقتصرنا فى ردنا وتعليقنا على هذا القدر لئلا نخرج عن القصد .

* * *

وقد تحرينا جهدنا الأمانة فى النقل وتفهم المسائل التاريخية وشرحها على ضوء المصادر التى أخذعنها المؤلف . ونرجو أن نكون قد وفقنا بعض التوفيق فى نقل ماكتبه بعض المستشرقين عن التاريخ الإسلامى وعن رأيهم فى الإسلام والمسلمين ، حتى يكون القارىء على بينة من رأى هؤلاء فى المسلمين بوجه عام والشرقيين بوجه خاص : ومما يزيد فى قيمة هذا الكتاب ندرته ، حتى إنه لا يوجد منه الآن سوى نسخة واحدة بدار الكتب الملكية ، وهى النسخة التى نقلنا عنها .

أكتوبر ١٩٦٤ حسن إبراهيم حسن — محمد زكي إبراهيم

محتويات الكتاب

البـاب الثالث

الإسرائيليات

مقـــدمة الكتاب

سنعرض فى هـــذه المقدمة لدراسة تاريخ الحزب العباسى ومدى نشاطه ، عسانا نقدم للقارئ طائفة قيمة من الأسباب السياسية والدينية التى انتهت بسقوط العرش الأموى ، إذ لا نستطيع قط أن ننكر أن سقوط ذلك العرش لم يبدأ إلا منذ اللحظة التى قام فيها أنصار البيت النبوى من دعاة العباسيين ليحلوا محل الأمويين ، أو بالأحرى منذ الوقت الذى ثار فى خراسان حزب كان على تمام الاستعداد لمناصرة الدعوة العباسية بكل ما فيه من قوة .

فهمتنا إذاً تنحصر فى حل تلك المعضلة ، وهى تعرُّف الأسباب التى دفعت الخراسانيين إلى أن يشايعوا البيت النبوى . قد يبدو ذلك سهلا لأول وهلة . فقد تكلم مؤرخو العرب الذين نستنير بما نقلوه إلينا فى هذه المسألة ، عن نظام الدعوة العباسية التى هيأت النفوس لحكم بنى هاشم (أهل البيت) . ونظن أننا قد أتممنا واجبنا حين نبين للقارئ كيف قامت تلك الدعاية وكيف وجدت طريقها إلى النفوس .

وقد حاولت جهدى حل تلك المعضلة فى رسالتى التى كتبتها عن « أصل الحزب العباسى » Die obkomst der Abbasiden in Khorasan. Leyde. 1890 معتمداً على ما نقله المؤرخون فيما يتعلق بالدعوة لبنى العباس . وقد تتبعت جهد المستطاع هذه الحركة منـذ نشأتها فى خراسان حتى اعتلاء الحزب الجديد كرسى الخلافة .

وأما فيما يتعلق بموضوعنا الذى نحن بصدده فلا يسعنى إلا أن أصرح بأنى لا أستطيع أن أحلل أسبابه تحليلًا تاريخيًّا مرضيًّا ، إذ أنى مقتنع تمام الاقتناع

أن ما ذكره مؤرخو العرب فى ذلك الموضوع ليس سوى تكرار الحوادث لها نصيب قليل أو كثير من الصحة ، ربما تستر الحقيقة أكثر من أن تكشف القناع عنها ، وذلك لتأثرها بالبلاط فى بغداد .

على أن تلك البحوث المتقدمة لم تكن عديمة الجدوى . فقد مكنتنى من أن أكوّن لى رأياً فى القيمة النسبية للمصادر العربية ، كما كشفت اللثام عن شىء هو أهم من هذا ، وهو وجود ثلاثة عناصر لها قيمة كبيرة فى نظر من يريد أن يتعرف سر انتصار العباسيين وهى : (١) الكراهة المتأصلة التى كان يكنها أهل البلاد المغلوبة للفاتحين من العرب الذين يختلفون عنهم فى الجنس والذين كانوا يضطهدونهم ويسومونهم الخسف (٢) الشيعة وهم أنصار أهل البيت (٣) انتظار مخلص أوهاد (Messie) .

وإن موضوعا مثل هذا لفى حاجة ماسة إلى بحث أدق وأعمق مما نظن . وكان لزامًا علينا ، ولاسيا إذا سلكنا طريقاً غير الطريق الذى سلكه مؤرخو العرب ، أن نعنى بوجه خاص بتعرف حال الشعوب المحكومة وعلاقاتها بالشعب الحاكم ، وأن نبحث بعد ذلك أثر تلك العلاقات فى انتشار الدعوة الشيعية ، ثم نبين إلى أى حد كان أثر اعتقاد الناس بالإسرائيليات[١] ، وإلى أى حد ساعد ذلك الاعتقاد بانضمامه إلى الأسباب السالفة الذكر على الدعوة لبنى العباس .

وإلى القارئ خلاصة تلك البحوث الجديدة ، علها تعدل الشئ الكثير مما كان يذهب إليه المؤرخون فى الحكم على العصر الأموى ، والتى لا تعرض

(١) العقائد غير الإسلامية — وبخاصة اليهودية والمسيحية والمجوسية والبابلية — التى تأثر بها المسلمون فى أواخر القرن الأول الهجرى . ولعله يقصد من بين تلك العقائد عقيدة المهدى المنتظر ، وهى يهودية الأصل — المترجمان .

للنزاع بين القبائل الذى عنى به مؤرخو العرب ثم مؤرخو الفرنجة عناية كبيرة والذى لم يكن له إلا مكان ثانوى بين تلك العوامل الكثيرة التى انتهت بسقوط الأمويين . فإن ذلك النزاع وإن ساعد فى اللحظة الأخيرة على نجاح الدعوة العباسية ، فلم يكن له أثر ما فى تلك الحالة الجديدة التى ظهرت عقب قيام الدعوة العباسية . ولن تقتصر بحوثنا على دراسة الحالة فى بلاد خراسان . فإن بحث حال تلك البلاد ، وإن كان يفسر لنا ما يجرى فى غيرها من الولايات الأخرى ، فقد كان لبعض الحوادث التى سنعرض لها علاقة وثيقة بالجزء الشرقى من الدولة الإسلامية بوجه عام وببلاد العراق بوجه خاص ، وذلك التوسع فى البحث ، وإن كان يزيد فى الصعوبات التى نواجهها فى مهمتنا هذه ، إلا أنه سيزيد بلا ريب ما عسانا نصل إليه فى دراسة هذا العصر بقدر ما يتسع لنا مجال هذا البحث . ولن نثقل على القارئ بتفصيل المراجع التى اعتمدنا عليها ؛ فقد ذكرناها قبل . ومن أهمها الطبرى (طبعة مسيو دى غويه) ثم ما كتبه أشهر مؤرخى القرنين التاسع والعاشر (الميلاديين) ، كالبلاذرى ، واليعقوبى ، والمسعودى ، وابن عبد ربه ، وكذا بعض المؤرخين المتأخرين ، كصاحب كتاب العيون وابن الأثير والمقريزى . وأما فيما يتعلق بالمخطوطات فإنى مدين ببعض المعلومات القيمة لكتاب المقفى الكبير للمقريزى ، وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد التى كنت أرجع إليها ، وذلك عدا جزء كبير من مجموعة Legatum Warnerianum . ويرجع الفضل فى ذلك إلى سخاء القائمين بإدارة المكتبة الأهلية بباريس ، وكذا مكتبة Ducales de Gotha.

وإنى لأدين بالشكر لأستاذى العزيز مسيو دى غويه ، فقد أظهر اهتمامًا شديداً بما قمت به من البحوث وسدد خطاى فى ميدان التاريخ الإسلامى الفسيح الأرجاء — تلك الخطا التى كانت خطا مستشرق لا يزال فى المهد ، كما عنى بمراجعة هذا الكتاب قبل طبعه وأمدنى بملحوظاته القيمة .

لم يبق أمامى بعد ذلك إلا أن أعتذر عن جرأتى على كتابه هذا البحث باللغة الفرنسية التى لا أحسن التعبير بها تمامًا . وهذا ضعف أعترف به عن طيب نفس . وإنما اضطررت إلى الكتابه بهذه اللغة لأنى لم أرد أن يكون هذا الكتاب خاصًّا بزملائى العلماء فحسب ، بل أردت أن يكون فى متناول المستشرقين من الذين يعنون بثمار الدراسات التى يقوم بها علماء الغرب .

وأكبر ظنى أن الوقوف على قيام الحركة العباسية وما كان لها من أثر ليس خلواً من النفع للشرق الحديث . فطالما لاحظت ثمة توافقاً غريبًا بين ما كان يجرى فى عهد عبد الملك وهشام وبين ما نشاهده اليوم من الحوادث فى الشرق . ولعل أن يكون فى ذلك « عبرة لمن يعتبر » .

ليدن — أغسطس سنة ١٨٩٢

الباب الأول

السيادة العربية

— ١ —

كيف انتشر الإسلام ؟

هناك فرق عظيم بين انتشار المسيحية وانتشار الإسلام . فقد انتشرت المسيحية انتشاراً وئيداً وسط وابل من الاضطهادات والآلام ، كما يدل على ذلك ما أثر عن عيسى عليه السلام من تلك الكلمات : « إن مملكتى ليست من هذا العالم » . وقد استطاعت المسيحية أن تحتفظ بطابعها على الرغم من انسيابها قروناً عدة بين شعوب مختلفة ومدنيات راقية . أما الإسلام فكان على العكس من ذلك . فإن محمداً (عليه الصلاة والسلام) لم يلبث أن أصبح له نفوذ روحى وزمنى عظيم بعد سنين قلائل من الجهاد والاضطهاد كما يدل على ذلك غير آية من القرآن ، وذلك بتحول أهل المدينة إلى الإسلام . وقد أصبح الإسلام بفضل ذلك النفوذ الذى كان يتمتع به الرسول ديناً قويًّا قام بحد السيف وانتشر بين الشعوب عن طريق الإنذار والوعيد . ولم يكن اعتناق أهل جزيرة العرب للإسلام ، أو بالأحرى خضوعهم له ، نتيجة دعاية سلمية وادعة . فقد أرغم ما كان للنبى من قوة ونفوذ بعض القبائل العربية من أهل البدو على الدخول فى الإسلام ، كما لم يكن إخضاعها حين ارتدت عنه بعد وفاة الرسول عن طريق الإقناع والمحاجة بكتاب الله

جل بقوة السيف . فقد أرغمهم خالد بن الوليد (سيف الله) إلى الرجوع إلى الإسلام[١] .

---

(١) هذا لايتفق مع صريح قوله تعالى (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) . أضف إلى ذلك منافاته لما رواه الثقاة من المؤرخين عن بدء إنتشار الإسلام . فقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بدعوة بعض أصحابه ممن كان يثق بهم ، فأسلم أبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وتبعهم غيرهم . وطالما كان يعرض الرسول نفسه فى موسم الحج على القبائل داعيا من أقبل إلى مكة من سائر العرب إلى الإسلام . وكان من هؤلاء جماعة من الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فأجابوه إلى مادعاهم إليه من اعتناق الإسلام ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى هذا الدين ، فلم يبق دار من دور أهل المدينة إلا وظهر فيها الإسلام . مضى ذلك فى جزيرة العرب دون أن يستل النبى سيفا أو يقاتل عدواً . كذلك اتبع الرسول الطرق السلمية فى نشر الإسلام خارج جزيرة العرب . والى القارىء ما كتبه الرسول إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، ذلك الكتاب الذى تسوده روح السلم والموادعة : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك إثم المجوس » . فمزّق كسرى كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال الرسول : « مزق الله ملكه ! » على أن كسرى لم يقف عند تلك الاهانة ، بل كتب إلى باذان عامله على اليمن : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به » . فبعث باذان رسولين يحملان كتابا إلى الرسول يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه ، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش ، فسألاهم عن الرسول فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا ، وقال بعضهم : أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل . فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا له : « إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق =

لم يتردد النبى (عليه الصلاة والسلام) فى رمى أهل الكتاب بالكذب والتضليل واتهامهم بالتحريف فى كتبهم حين رأى أن دينه الذى كان يرمى

= معنا » . فصرفهما الرسول على أن يعودا إليه فى الغد . فأتى رسول الله الخبر من السماء » أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله » . فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول هذا الخبر فقالا له : « إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ » قال « نعم ! أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى . . . . . وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء » . فعاد الرسولان إلى باذان فقصا عليه ماتنبأ به النبى فقال : « والله ماهذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول : ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقا فإنه لنبى مرسل . وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا » . فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : « أما بعد فانى قد قتلت كسرى . ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما استحل من قتل أشرافهم . فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام) . فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » . فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال « إن هذا الرجل لرسول » ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن (الطبرى ج ٣ ص ٩٠)

كذلك كتب الرسول إلى هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية (الطبرى ج ٣ ص ٨٧) والى المقوقس عامله على مصر كتابين يدعوهما إلى الإسلام بالوسائل السلميه دون أن يلجأ إلى إذكاء نار الحرب .

وإن ماذهب إليه المؤلف ليتنافى أيضاً مع ماسار عليه الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد التى فتحوها واحترامهم لحريتهم الدينية ومحافظتهم على حقوقهم المدنية يدل على ذلك أمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل إيلياء الذى ننقله عن الطبرى (ج ٢ ص ١٥٩) : « هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولاتهدم ، ولا ينتقص =

إلى نشره بادئ ذى بدء بين مواطنيه لم يرض اليهود كما لم يرق للنصارى . وهكذا استطاع الإسلام أن يحاج أهل الكتاب بتصريحه أنه أرقى الأديان

= منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم . . »

من هذا يظهر أن الإسلام لم ينتشر فى جميع أدواره بحد السيف والإرهاب . وإلا فماذا يقول فان فلوتن فى انتشار هذا الدين فى القرن السابع الهجرى فى الوقت الذى ضعفت فيه الدولة الإسلامية بزوال الخلافة العباسية وسقوط بغداد فى أيدى التتار ؟ وإلى القارئ كيف وجد ذلك الدين السمح الطريق إلى نفوس هؤلاء الفاتحين المتبربرين من المغول . يقول الأستاذ سير توماس أرنولد فى كتابه (« الدعوة إلى الإسلام » ص ٢١٨ — ٢١٩) : « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول . فلقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة . . على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل فى ذلك إلى حملس الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من العصوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما المسيحية والبوذية ، وكانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار . وليس فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام — كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين الذين داسوا بأقدامهم تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقاليم والأقطار » . ويقول السير توماس أرنولد فى مكان آخر (ص ٢٢٦ — ٢٢٧) عند كلامه عن انتشار الإسلام فى بلاد الصين « وبالرغم من هذه المصاعب التى لقيها دعاة المسلمين ، فقد أذعن المغول لدين هذه الشعوب الإسلامية التى ساموها الخسف وجعلوها فى موطىء أقدامهم . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول أمبراطورية المغول وعرضها مجاهدين فى طى الخفاء لجذب هؤلاء =

وأنه وحده هو الدين الحق . وكان من أثر اصطدام الرسول باليهود والنصارى فى بلاد العرب أن طرد اليهود من المدينة وشنت الغارات على المسيحيين فى بلاد

= الكفار إلى حظيرة الإسلام . ففى عهد أجتاى (بضم الجيم) (٦٢٤—٦٣٩ هـ و ١٢٠٦ — ١٢٢٧ م) تحول كرغز (بكسر الكاف وكسر الغين) إلى بلاد فارس من قبل المغول من البوذية إلى الإسلام . كذلك كان آننذ (بفتح النون الأولى وسكون النون الثانية) حفيد كوبيلاى (٦٥٥ — ٦٩٣ هـ و ١٢٥٧ — ١٢٩٤ م) والى قان صو مسلما متحمسا ، مما حدا به إلى حمل الكثيرين من أهل تانجوت وعدداً كبيراً من جنده إلى اعتناق الإسلام .

أضف إلى ذلك ما كان لتجار المسلمين الذين نصبوا أنفسهم دعاة للإسلام من أثر فى انتشار هذا الدين . فقد كان بركة خان (١٢٥٦ — ١٢٦٨ م) أول من أسلم من أمراء المغول ، وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى الروسيا . ويقال فى سبب إسلامه إنه لقى يوما عيرا للتجارة آتية من بخارى ، فاختلى بتاجرين منها وسألهما عن الإسلام ، فشرحاه شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له .

كذلك كان تكودار أحمد ثالث خانات المغول فى بلاد فارس أول من اعتنق الإسلام . وقد شب على المسيحية وتعمد فى صباه وتسمى باسم نيقولا ، ثم اعتنق الإسلام عند ما بلغ سن الرشد ، وذلك على أثر اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم ، وسمى نفسه أحمد خان . وقد بذل قصارى جهده فى تحويل كافة المغول إلى الإسلام ، فأسلم على يده كثير منهم . ثم بعث تكودار أحمد بنبأ اعتناقه الإسلام إلى قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) سلطان المماليك فى مصر فى كتاب طويل يعتبر وثيقة تاريخية نتبين منها كيف انتشر الإسلام بين المغول . وإلى القارئ بعض ما ورد فى هذا الكتاب نقلا عن القلقشندى (صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ — ٦٨) : « أما بعد ؛ فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الاقرار بربوبيته والإعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) » . =

بيزنطه فى اللحظة التى انتقل فيها الرسول إلى جوار ربه . وقد ترك النبى
لخلفائه إتمام مهمته ، وذلك بإخضاع الكفار . ولنعرض الآن لبيان أثر الحروب

= وقد علق الأستاذ السيرتوماس أرنولد على ما كان للإسلام من أثر فى تهذيب
نفوس المغول — ذلك الأثر الذى وضح وضوحا جليا فى كتاب تكودار أحمد
إلى سلطان المماليك بهذه العبارة « وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عند ما يتحول
فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء إلى أسمى عواطف
الإنسانية وحب الخير التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها
تكودار أحمد إلى سلطان المماليك فى مصر ، والتى يدهش الإنسان لصدورها
من مثل ذلك المغولى » .

بقى أن نقول كلمة عن الإنتشار الإسلام فى أوربا . كان أزبك خان
(Uzback Khan) ، الذى كان زعيما للقبيلة الذهبية (١٣١٣ — ١٣٤٠م) والذى
اشتهر بتحمسه الشديد للدين الإسلامى وحرصه على تحويل الكثيرين من
الأهلين إليه ، أول من جد فى نشر الإسلام فى كافة أرجاء بلاد الروسيا
ويذكر لنا التاريخ أنه رغم تحمسه للدين الإسلامى وتفانيه فى الإخلاص له
كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين ؛ فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة
شعائرهم الدينية . وذهب فى تسامحه معهم إلى أبعد من هذا ، فقد سمح لهم
بالتبشير لدينهم ونشره فى بلاده . ومما يدل على ذلك التسامح تلك الوثيقة التاريخية
التى نقلها المرحوم الأستاذ سيرتوماس أرنولد (ص ٢٤١ — ٢٤٢) عن كرامزان
(بفتح الكاف وسكون الميم وكسر الزاى) ، وقد جاء فيها : « إن كنيسة بطرس
مقدسة ، فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى
على شئ من عقارها أو متاعها ، ولا أن يتدخل فى أمورها . ومن خالف أمرنا هذا
بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله وجزاؤه منا القتل » (ج ٤ ص ٣٩١ — ٣٩٤) .

ولم يكن هذا المرسوم كلمات جوفاء أو مجرد « حبر على ورق » . فقد ظهر
ذلك التسامح واضحا جلياً فى كتاب أرسله البابا يوحنا الثانى والعشرون فى
سنة ١٣١٨ م إلى أزبك يشكر له عطفه على رعاياه من المسيحيين ويثنى على تلك
المعاملة التى كان يعاملهم بها أزبك . =

التى شنها المسلمون فى نفوس القبائل العربية التى كانت تعتبر الإسلام نيراً ثقيلا
عليهم حتى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى . فإن الحال لم يلبث أن تغير .

= وقد حاول نشر الإسلام فى جميع بلاد الروسيا البلغار من المسلمين الذين
كانوا يقيمون على ضفاف نهر الفلجا حول القرن العاشر الميلادى والذين يدينون
بإسلامهم للتجار من المسلمين الذين كانوا يترددون على بلادهم بتجارة الفراء
وغيرها من السلع . على أنه يظهر لنا أن هؤلاء البلغار قد دخلو الإسلام قبل ذلك
الحين . فقد أرسل إليهم الخليفة العباسى المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) بعثة
من العلماء لتعليمهم أصول الإسلام وعقائده . ثم حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير
ملك روسيا فى ذلك الحين إلى الإسلام ، وكان يدين بالدين الوثنى . ولم يقف
فى سبيل تحوله هو ورعاياه إلى هذا الدين إلا الختان وتحريم الخمر عند المسلمين
Arnold, PP. 242—243 .

هكذا ظلت حركة الدعوة للإسلام فى بلاد الروسيا بطيئة حتى سنة ١٩٠٥ ،
حتى صدر مرسوم حرية التدين فى الإمبراطورية الروسية . ومن ثم نشطت حركة
الدعوة إلى الإسلام فى تلك البلاد ، وأخذ الكثير من الروس يدخلون فى هذا
الدين . ويرجع الفضل فى هذا إلى القوة المعنوية التى كان يمتاز بها المسلمون فى هذه
البلاد . والمصدر نفسه ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

وقد أدخل تتار القرم من المسلمين إلى الإسلام الكثير من سكان بلاد اليونان
وايطاليا الذين كانوا يقيمون فى شبه جزيرة القرم . ويحدثنا أحد الرحالين فى القرن
السابع عشر الميلادى أن تتار القوم هؤلاء كانوا يبذلون جهدهم لتحويل مواليهم
إلى الإسلام ؛ وكانوا يعدونهم الحرية إذا ما دخلوا فى دينهم . وقد نشطت الدعاية
للإسلام بين تتار القرم أيضا على أثر مرسوم حرية التدين الذى صدر فى سنة ١٩٠٥ .

ومن أغرب الحوادث فى تاريخ الدعوة الإسلامية تحول القرغيز فى بلاد آسيا
الوسطى إلى الإسلام على أيدى المولوية من التتار الذين نشروا تعاليم هذا الدين
بينهم فى القرن الثامن عشر الميلادى . ومن ثم أنفقت الأموال الضخمة لبناء المساجد .
وقام عدد كبير من المولوية بانشاء المدارس وتعليم الأطفال عقائد الإسلام .
وفى مستهل القرن التاسع عشر كان السواد الأعظم من القرغيز الذين كانوا يقيمون =

فقد بدأت تلك القبائل تعتبر ذلك الدين ، الذى كان يلائم مواهبهم الحربية ويثيبهم عليها ثواباً عظيماً فى الدنيا والآخرة ، غرضهم الوطنى الأسمى غداة

= فى تلك السهول الفسيحة الممتدة بين تبلسك وبلاد التركستان لا يزالون على الوثنية . وقد فكرت الحكومة الروسية فى ايفاد بعثة من المبشرين لنشر الدين المسيحى بينهم . على أنه قد صرفها عن هذا ما كانت تزعمه من وحشية هؤلاء وعجزهم عن فهم الإنجيل . وانتهز جماعة من المسلمين هذه الفرصة فحولوا جميع تلك القبائل إلى الدين الإسلامى .

وفى القرن الثامن عشر نشطت الحكومة الروسية من جديد فى تحويل القبائل الوثنية من المغول إلى الدين المسيحى . فى سنة ١٧٧٨ أمرت كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثى عهد بالمسيحية على إقرار كتابى يتعهدون فيه بترك الوثنية دينهم القديم والتمسك بالدين المسيحى وعقائده . وعلى الرغم من ذلك فإن الذين تعمدوا من المغول لم يدخلوا المسيحية إلا ظاهراً ولم يكونوا مسيحيين إلا بالاسم فقط . وسرعان ما تخلصوا من الكنيسة الارثوذكسية واعتنقوا الإسلام . ولم يكن هذا الدخول فى المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم فى الإسلام . وقد نجح المسلمون فى تحويل أهل جميع القرى من بلاد الروس — وبخاصة القرى الواقعة فى الشمال الشرقى من هذه البلاد — على الرغم من القوانين الشديدة التى سنتها الحكومة الروسية فى ذلك الحين . نخص بالذكر منها ذلك القانون الذى كان يقضى على كل من يحاول تحويل أى مسيحى الإسلام بالحبس مدة تتراوح بين ثمانية وعشر أعوام وحرمانه من جميع الحقوق المدنية . (أرنولد ص ٢٤٦ — ٢٤٩) .

وقد ظهر ميل الروس إلى الإسلام والدخول فيه على أثر مرسوم حرية التدين الذى صدر فى سنة ١٩٠٥ . فى سنة ١٩٠٩ اعتنق الإسلام إحدى وتسعون أسرة فى قرية أنومفا (بسكون الميم) ، كما اعتنق هذا الدين ٥٣٬٠٠٠ نسمة بين سنتى ١٩٠٤ و ١٩١٠ . ويقول سير توماس أرنولد : « ويرجع الفضل فى اعتناق هذا العدد الكبير للدين الإسلامى إلى رقى المستوى الأخلاقى فى البيئات الإسلامية ، وإلى حماس القائمين بنشر الإسلام فى تلك البلاد والدعوة إليه . فقد نصب =

انتصاراتهم الأولى على الكفار من الشعوب الأخرى . وبذلك جدوا فى نشره بدافع وطنى أكثر منه دينى حتى حدود إفريقية الشمالية وفى أكثر بقاع آسيا .

= كل مسلم — حتى الأمى منهم — نفسه داعياً لذلك الدين . ومن ثم لم يستطع الوثنيون من تلك القبائل أن يقاوموا تيار تلك الدعوة الجارف ، ولم يلبثوا أن دخلوا فى الإسلام أفواجا . وفى الشتاء كان يذهب الكثيرون من أهل القرى المسيحية حاكة إلى البلدان الإسلامية ؛ وسرعان ما كانوا يدخلون فى الإسلام ثم يعودون إلى قراهم على أشد ما يكونون تحمسا له وللدعوة إليه بين ذويهم .

وقد وجه المولوية من أهل بخارى وغيرها من بلاد آسيا الوسطى وكذا التجار من قزان وجوههم نحو سيبريا لنشر الإسلام فيها . وبذلك انتشر الإسلام لأول مرة فى هذه البلاد بين التتار (الذين كانوا يقيمون فى البلاد الواقعة بين نهرى إرتس وأوب) . ومع أن الكثيرين منهم كانوا لا يزالون حتى مستهل القرن التاسع عشر على الوثنية ، فإنهم لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام جميعاً ؛ ولا يزالون على ذلك إلى اليوم . وأما تاريخ إسلام القبائل الأخرى فى بلاد سيبريا فإنه لا يزال غامضاً . على أنه يغلب على الظن أن اعتناق هذه القبائل للاسلام إنما يرجع إلى عهد قريب .

من هذا يتبين لنا أن الإسلام إنما وجد طريقه إلى القلوب وخالطت بشاشته النفوس عن طريق الحجة والإقناع . أضف إلى ذلك أن النفوس كانت تتطلع منذ مستهل القرن السابع الميلادى إلى مصلح جديد . فقد تطرق الفساد إلى جميع مناحى الحياة ومال ميزان العدل بين الناس ببلاد العرب والفرس والروم . ومن ثم بادر الناس إلى الإسلام لما امتاز به من الديمقراطية الصحيحة والمساواة الحقة (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . سورة الروم آية ٣٠) .

وأما ما يزعمه « فان فلوتن » من أن محاربة أبى بكر لمن ارتد من المسلمين بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام كان نشراً للدين بحد السيف فهو غير صحيح ، إذ لم تكن تلك الحروب سوى قمع لثورة داخلية أراد بها بعض من لم يخالط الإسلام قلوبهم القضاء عليه وهو لا يزال فى مهده . لذلك لم يكن بد لأبى بكر =

لم تنتشر المسيحية إلا بعد قرون عدة من الشدة والآلام . أما الإسلام فكان على العكس من ذلك ، إذ لم يكد يمضى على ظهوره اثنا عشر عامًا حتى اعتنقه شعب بأكمله على تمام الاستعداد للتضحية والقيام بأعباء الفتح . على أن هناك ظاهرة أخرى . ذلك أنه بينما كانت المسيحية تنتشر بين الشعوب المتحضرة وتوطد سلطانها بين الأمم ذات المدنيات الراقية كان الشعب العربى لايزال على بداوته رغم اعتناقه الإسلام . نعم ! كان الجيش الإسلامى لايخلو من بعض القبائل المتحضرة ، كما كان يضم الكثير ممن لم يكونوا بعيدين كل البعد عن المدنيات والأفكار الدينية التى كانت سائدة بين الشعوب المجاورة لهم . إلا أن روح الصحراء وعوائد البداوة لم تَزُل تمامًا – كما لا يخفى – من بين المتحضرين وسكان المدن منهم .

لم تكن المسألة مسألة دين انتشر وبسط نفوذه فحسب على بلاد سورية وجزء عظيم من مملكة فارس القديمة . فقد كان هناك أمر آخر ، ذلك أن شعبًا غريبًا غير مثقف قد استطاع بما له من قوة وبأس أن ينفذ إلى الولايات المسيحية ويوطد سلطانه بين أنصار دين زردشت فى بلاد فارس .

وكانت القوانين التى كان يرجع إليها فى تنظيم العلاقات بين العرب وأهل البلاد التى فتحوها غاية فى البساطة . وهى مستنبطة من بعض كتب الصلح التى كان يكتبها الرسول لمن ينتصر عليهم . وكانت تمنح الشعوب التى تفتح أبوابها للمسلمين حرية التدين وملكية الأرض ، كما كانت لا تطالب إلا بالجزية (التى كانت تسمى أيضًا خراج جزية) ، وهى الضريبة التى كان يدفعها الشعوب المحالفة للمسلمين نظير حمايتهم لها ، بينما كان للمسلمين الحق فى تخريب البلاد التى كانوا يفتحونها عنوة وقتل رجالها وسبى نسائها . على أن المسلمين كانوا يفضلون ترك الأرض لأهل تلك البلاد يستغلونها لمصلحة الفاتحين .

لم يكن الغرض من الفتوحات الإسلامية على هذه الصورة هو إدماج شعب فى شعب أو العمل على نشر دعوة دينية معينة ، وإنما هو احتلال بقوة السيف[١] . وتظهر هذه الظاهرة بوضوح فى السُّنة التى سنها عمر بن الخطاب الخليفة الثانى لتشجيع تلك الفتوح .

= من القضاء عليها جهده حتى لا تتصدع أركان الوحدة العربية وتتفرق كلمة المسلمين — المترجمان .

(١) إن جميع أفعال الرسول لتشهد بأن الغرض الأول من دعوته إنما هو إنتشار الدين . ولن تعوزنا الأمثلة الكثيرة للتدليل على ذلك الرأى . فقد روى الطبرى (ج ٣ ص ١٢٣ – ١٢٤) أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد بعد فتح مكة داعيا إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتلا . فسار خالد حتى نزل على جذيمة . فلما رآه القوم أخذوا أسلحتهم واستعدوا للقتال ، فقال لهم خالد : « ضعوا أسلحتكم فإن الناس قد أسلموا » . فلما وضعوها أمر بيعضهم فقتلوا . فلما بلغ الرسول ذلك رفع يده إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم أرسل على بن أبى طالب بمال فودى لهم الدماء (دفع لهم الديات) وما أصيبوا به من أموال . وإن المتتبع لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ليرى أن غزواته وسراياه إنما كانت للذود عن الإسلام والدفاع عن نفسه وقومه (فقد دبرت قريش قتله حين خافوا خروجه عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، ولا سيما وقد رأت أنه قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم . فاجتمعوا فى دار الندوة حيث تشاوروا فى أمره عليه الصلاة والسلام . وانتهى بهم الرأى إلى إن يأخذوا من كل قبيلة فتى جلداً وأن يعطى كل منهم سيفاً صارما فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً (ابن هشام ج ١ ص ٧٣ — ٧٤) .

هذا إلى ما أذاقوا النبى وأصحابه من صنوف العذاب وضروب الأذى مدة إقامتهم بين ظهرانيهم بمكة . وقد شاء الله أن لا تنجح حيلتهم فيما دبروه للرسول ، فهاجر إلى المدينة . إلا أن العرب ما فتئوا يدبرون له المكايد ويتربصون به الدوائر ، =

وكانت تقضى القواعد التى سنها عمر بأن يكون كل مسلم جنديًّا من جنود الإسلام ، على أهبة الاستعداد لتلبية داعى الجهاد فى كل لحظة دفاعًا عن دينه وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاء معيناً مقابل خدماته . وكان المسلمون يوزعون جنودهم فيما كانوا يفتحونه من الولايات ـ كسورية والعراق ومصر ـ

= ولا سيما اليهود من أهل يثرب (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ـ سورة البقرة . آية ٨٩) وقد أجمع المؤرخون وعلى أن السبب فى إجلاء يهود بنى النضير إنما يرجع إلى تآمرهم على قتل الرسول . فقد جاءهم الرسول يستعينهم فى دية بعض القتلى ، فوعدوه بذلك . ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : «إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه» . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فقالوا : « من يعلوا على هذا البيت فيلقى صخرة فيقتله بها فيريحنا منه ؟ » فقال عمرو بن جَحاش . «أنا لذلك» . فصعد ليلقى بالحجر على الرسول : فأتى الرسول الخبر من السماء بما أراد القوم ، فعاد إلى المدينة ، ثم خرج إلى قتالهم وأجلاهم عن ديارهم .

كذلك كان الحال فى « بئر معونة » . فقد ذكر ابن هشام (ج ٣ ص ٤٤ — ٤٥ أن أبا براء عامر بن مالك قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الرسول الإسلام دعاه إليه فلم يسلم ، ثم قال للرسول : » يامحمد ! لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك » . فقال رسول الله : « إنى أخشى عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : « أنا لهم جار فابعثهم فليد عوا الناس إلى أمرك » . فبعث الرسول المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة . فبعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه وعدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه وقالوا : « لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً » . فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه إلى ذلك وخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم وهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم : وكانوا ـ رضى الله عنهم ـ من أشهر القراء والحفاظ . =

على المعاقل الهامة . كذلك كان الحال فى الإمبراطورية الفارسية القديمة وبلاد ميديا وخراسان وغيرهما من الولايات التى كانت تمتد إليها الفتوحات الإسلامية .

وكانت حياة العرب تتفق تمام الاتفاق مع تلك النزعة الحربية . فقد كان محرمًا عليها ملكية الأرض وكانوا يعيشون من العطاء (وهو أجر تدفعه

= أضف إلى ذلك ما كان من « سرية بنى الرجيع » (سنة ٤ هـ) . فقد قدم على رسول الله وفد من عضل والقارة فقالوا : « يارسول الله ! إن فينا إسلاما وخيراً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرءوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام » . فبعث رسول الله ستة من أصحابه . فلما أتوا على الرجيع (وهو ماء لهذيل) غدروا بهم ، فأخذوا سيوفهم ليقاتلوا القوم . ومازالوا يدافعون عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وأسر البعض الآخر فكانت نهايته القتل . فكان ذلك سبب غزوة بنى لحيان (ابن هشام ج ٣ ص ٤٩ — ٦٠ والطبرى ج ٣ ص ٢٩ — ٣٣) .

وأما غزوة الخندق (سنة ٥ هـ) فيرجع سببها إلى أن بعض اليهود قد نقضوا الحلف الذى كان بينهم وبين الرسول ، ثم خرجوا إلى مكة فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدوهم أن يكونوا معهم حتى يقضوا عليه وعلى دعوته . ثم جاءوا غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا أهل مكة . فلما سمع الرسول بما أجمعوا عليه أمرهم ، حفر الخندق حول المدنية وتحصن وراءه هو وأصحابه للدفاع عن أنفسم ، ثم عمد عليه الصلاة والسلام إلى الخدعة فأرسل إليهم من أوقع الخلاف بينهم ؛ فعادوا أدراجهم راضين من الغنيمة بالأياب (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً) (ابن هشام ج ٣ ص ٦٨ — ٧٠) . وأما بنو قريظة فالخطب فيهم أشد ، فإنهم ساعدوا الأحزاب حتى جعلوا الرسول فى أشد مواقف الحرج .

وأما فتح مكة فيرجع إلى نقض قريش ما كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية (سنة ٦ هـ) . ففى السنة السادسة للهجرة خرج النبى عليه الصلاة والسلام للعمرة فى ألف وأربعمائة من المسلمين ، فوقف القرشيون =

إليهم الحكومة) والمعاون (وهى ضريبة تدفع عيناً على البلاد المفتوحة) ثم الغنائم والأسلاب التى كان لاينضب معينها طالما كانت هناك بلاد تفتح وأقاليم تستغل . ويظهر أن تلك النزعة لم تخب عند العرب فى ذلك الوقت ، فقد كانوا لا يزالون منقسمين إلى قبائل . ولا غرو فقد كانت حياة الصحراء ـ بما فيها من ضِغن وشحناء وحب للانتقام والتخريب والأخذ بالثأر ـ لا تزال على حالها الأول بين القبائل فى شرق البلاد وغربها ، ولا سيما فى تلك الفترات التى كانت تضعف فيها السلطة المركزية عن إقرار الأمن فى نصابه .

وهكذا يصور لنا الاحتلال العربى بوجه عام شعبًا يعيش على حساب شعب آخر . وهذا هو نفس مالاحظه ڤون كريمر إذ يقول : « كان أهل الولايات المغلوبة يحرثون ويبذرون والمسلمون يحصدون ولا عمل لهم سوى الحرب وشن الغارات » . (ج ١ ص ١٧١)[1] وتبين لنا هذه الكلمات بياناً

= فى طريقة على مقربة من مكة . ثم دارت المفاوضات بين المسلمين والقرشيين الذين خشوا بأس المسلمين . وطلب القرشيون الصلح على أن تعقد بين الفريقين هدنة أمدها عشر سنين . على أن أهل مكة لم يلبثوا أن نقضوا هذه الهدنة ، وذلك بمساعدتهم بكراً على خزاعة المحالفة للرسول . فاستجارت خزاعة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فسار إلى مكة فى عشرة آلاف . فلما علم أهلها بقدومه خرج قادتهم ليسلموا . ولما تم له فتحها عفى عن أهلها رغم ما أذاقوه هو وأصحابه من صنوف الإضطهاد

من كل هذا يتبين لنا أن الغرض الأول الذى كان يسعى إليه الرسول جهده هو نشر الإسلام بكل الوسائل السلمية ، وأن تلك الحروب التى بينه وبين الكفار داخل جزيرة العرب أو خارجها إنما ابتدأه بها أعداؤه واضطروه إليها إضطراراً — المترجمان .

(١) وتوجد نفس هذه الفكرة فى إحدى خطب عمر بن الخطاب — الطبرى ١ : ٢٧٦١ س ٣ وما يليه .

يكاد يكون قاطعًا حال السيادة الإسلامية فى الأقاليم التى فتحها المسلمون . على أن المسلمين طالما كانوا خيراً من غيرهم من الفاتحين . ولا غرو فإن أهل سورية ومصر ، الذين أثقل الرومان كاهلهم بالضرائب الفادحة قبل الفتح العربى ، لم يقاوموا الفاتحين من العرب مقاومة تذكر . وكذلك كان الحال فى سواد العراق[1] .

---

(١) فان برشيم : أرض الدولة والضريبة العقارية (الخراج) فى صدر العصر الأموى ص ٢٦ .

« أرض الدولة (الأملاك الأميرية) والضريبة العقارية (الخراج) فى عهد الخلفاء الراشدين » .

هذا يخالف ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفتح العربى كان خيراً على أهالى البلاد التى فتحها المسلمون . من ذلك عهد عمر لأهل إيلياء ، وكذلك عهد الصلح بين عمرو والمقوقس . وقد جنى عمرو بن العاص ثمار هذه السياسة فى مصر ، فألف بين القبط والمسلمين ، وكتب كتاب الأمان إلى بنيامين بطريرق القبط ورده إلى كرسيه بعد أن غاب عن البلاد زهاء ثلاث عشرة سنة فراراً من عسف الروم وظلمهم ، ومنحه السلطان المطلق لإدارة شئون الكنيسة . ناهيك بأطلاق عمرو حرية المعتقدات الدينية للمصريين وعدم التعرض لهم فى عاداتهم وتأمينهم على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، وما قام به من ضروب الأصلاح وتنظيم الإدارة وتنصيب القضاة ورسم الخطة لجباية الخراج ، إلى العناية بالرى مما زاد فى ثروة البلاد ورفاهيتها . وقد خفف عمرو عن المصريين عبء الضرائب التى أثقلت كاهلهم فى عهد الرومان ، وساوى فيها بين الأهلين . وسار على هذه السياسة من جاء بعده من ولاة المسلمين فى هذه البلاد .

أضف إلى ذلك مناقضة المؤلف نفسه . فقد ذكر فى صفحة ٣ « أن أهل سورية ومصر ، الذين أثقل الرومان كاهلهم بالضرائب الفادحة قبل الفتح العربى لم يقاوموا الفاتحين من العرب مقاومة تذكر . وكذلك كان الحال فى سواد العراق . . . هذا إلى ما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الأصلاح » . =

وقد احتفظ المسلمون بالنظام القديم الذى سنه عمر لجباية الضرائب وأقاموا على جبايتها موظفين من أهالى تلك البلاد . ولم تكن الضرائب التى فرضها عمر فادحة على ما ذهب إليه بعض المؤرخين . هذا إلى ما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح .

وينبغى أن لا يفوتنا أن الفتح العربى على حالته هذه ، وإن كان معقولا فى بادئ الأمر ، فقد كان لزامًا أن يصبح غير محتمل اللهم إلا بقدر ما كان يرحب به من النظم الجديدة التى كان يقتضيها ذلك الفتح نفسه . فغلطة الفاتحين من العرب إذن ، وعلى رأسهم الخلفاء ، هى إهمال تلك الحقيقة . وإذا تصدينا للتدليل على أن السيادة العربية لم تأت بخير مطلقاً للشعوب التى أخضعتها ، فلكى نبين أن العرب قد أبوا فى الوقت الملائم قبول التطورات التى كانت تقتضيها حال تلك الولايات .

— ٢ —

الفتوح الإسلامية فى نظر بنى أمية

إن ما أثر عن الفاتحين من العرب فى صدر الإسلام ، وإن كان يدل على ما كان عندهم من النزاهة والزهد فى حطام الدنيا والإخلاص للمصلحة العامة ، فإن الأنانية والجشع لم يلبثا أن وجدا طريقهما إلى نفوس العرب واستوليا على قلوبهم لما كان يفاض عليهم من كل ناحية من النعيم والثراء ـ ذلك الثراء الذى لم يكن مألوفاً لهم والذى كان أقرب إلى إفساد النفوس منه إلى تهذيب الأخلاق .

= وإذا كان بعض هذه الشعوب قد شكت ظلما من أمراء المسلمين فإنما كان ذلك بعد صدر الإسلام الذى يمثل الإسلام تمثيلا صحيحا . وما حدث بعد ذلك العصر من المظالم إنما يرجع إلى سيرة الأمراء لا إلى مبادئ الإسلام نفسه — المترجمان .

ففى مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة منذ أوائل الفتح العربى مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليهم الغنائم والأعطيات السنوية ، حتى إن كوفيا رحل إلى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه[1] . وكان الصحابة أنفسهم يملكون الضياع والقصور والثروات الكبيرة . أضف إلى ذلك ما كانوا يمنحونه من المنح العظيمة[2] . وكان من أثر ذلك أن ثار أبو ذرّ فى بلاد الشام ودعا الأغنياء وذوى اليسار إلى النزول عن جزء من ممتلكاتهم للفقراء[3] .

وطالما كان يفشو الترف وينتشر الفساد تاركاً وراءه الكثير من الحاجات الجديدة والجم من مطالب الحياة الملحة . وكانت الاستدانة هى الوسيلة الفذة لإشباع تلك الحاجات[4] ، تلك الوسيلة التى مهدت السبيل لقيام المؤامرات كما كانت الحال فى رومة . ومن ثم كانت الثورة ضرورية لإرضاء جشع الدائنين . ولا غرو فكثيراً ما كانت تتخذ ذريعة للاستيلاء على ما فى بيت المال من الأموال[5] .

(١) الطبرى ٢ : ٨٠٦ (س ٨ وما يليه) .

(٢) المسعودى : مروج الذهب (طبعة دى مينار) . ج ٤ ص ٢٥٣ وما يليها . فايل : تاريخ الخلفاء . فون كريمر
Gesch d. herchenden Ideen, P. 230, 352, 366

(٣) الطبرى ١ : ٢٨٥٨ . فايل ج ١ ص ٣٩٩ وما يليها .

(٤) الطبرى ١ : ٢٧٥٥ (س ١٢ وما يليه) ، ٢٨١١ (س ١٦ وما يليه) ، ٢ : ١٠٢٧ (س ١٢ وما يليه) ، ١١٨٩ (س ٢ وما يليه) ، اليعقوبى (طبعة هوتسما) ٢ : ٢٨١ ، ٣٠٠ وما يليها .

(٥) الطبرى ٢ : ١٠٢٨ (٨) ، ١٠٢٩ (٤) .

على أنه كانت هناك وسيلة أسهل وأشرف من ذلك كثيراً ، وهى الغزوات وشن الغارات على الكفار . وطالما كان الدافع على ذلك هو شره الولاة والقواد أكثر من الرغبة فى نشر الدين ، كما يظهر لنا ذلك فى بلاد خراسان خاصة .

وقد عقد معظم البلاد المتاخمة لتلك الولايات ـ طبرستان وطخارستان وبلاد ما وراء النهر ـ المحالفات مع المسلمين منذ الصدر الأول للدولة الأموية . وكانت هذه المحالفات تكفل لهم حرية التدين وتمنحهم الاستمتاع بشيء من الاستقلال كما كانت تفرض عليهم ضريبة مقررة . ومما لا ريب فيه أن هؤلاء الكفار كثيراً ما كانوا يخرجون على تلك المعاهدات مما كان يضطر المسلمين إلى شن الغارات عليهم من جديد وتخريب بلادهم وسبى نسائهم . وطالما كانت تغرى الغنائم (بعد استيلاء بيت المال على الخمس) بعض الفاتحين فيشنون الغارات على بعض الولايات قبل أن يعلنوا الحرب عليها . يؤيد ذلك ما كتبه البلاذرى(١) عن حرب جرجان وطبرستان . وأما ما يسميه مؤرخو العرب فتوح يزيد فلم تكن فى الواقع إلا ضرباً من تلك الحملات التى يجردها قطاع الطرق على البلاد الآمنة المطمئنة ، تلك الفتوح التى أسخط ما ارتكبه فيها من القسوة والعسف الشعوب التى لم تكن تنشد غير السلم .

وإن فيما حدث لسمرقند لمثلا حيًّا . فقد فتحت تلك المدينة أبوابها لسعد ابن عثمان بعد أن أبرمت بينه وبينها معاهدة ودفعت له سبعمائة ألف درهم كما قدمت إليه مائة ألف من سكانها رهائن(٢) . ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم،

---

(١) فتوح البلدان (طبعة دى غويه) ص ٣٣٤ وما يليها ، الطبرى ٢ : ١٣١٧ وما يليها .

(٢) الطبرى ٢ : ١٢٤٥ و ١٢٤٦ (س ١٨) .

فطرد أهلها واحتلت جنوده مساكنها ـ كما روى ذلك مؤرخو العرب ـ على الرغم من أن سكان هذه المدينة لم يخرجوا على تلك المعاهدة التى كانت بينهم وبين سعد بن عثمان(١) . ولما ارتقى عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة شكا أهل سمرقند إليه تلك الحالة الجائرة ، فأمر أحد قضاته بالنظر فى هذه المسألة ، فقضى بينهم بحكم يكاد يخفى ما انطوى عليه من الخبث حتى على أشد الناس نزاهة ، وذلك أن يتقابل الفريقان من العرب ومن أهل سمرقند تحت أسوار المدينة ، وأن يؤخذوا بالقوة أو أن تعقد معهم محالفة جديدة . ومعنى ذلك أنه إذا انتصر العرب (وهو ما كان راجحًا ، فإن سكان سمرقند كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فى أسوارهم) عاملوا أهل سمرقند معاملة من فتحت بلادهم عنوة ، اللهم إلا إذا فضلوا قبول ما عسى أن يفرض العرب عليهم من الشروط . ومن الجلى أن حكم ذلك القاضى لم يغير تلك الحالة فى شيء(٢) .

وتبين لنا تلك الحوادث الكثيرة(٣) فكرة العرب ورؤسائهم عن مهمتهم فى الشرق . فقد كان كل واحد منهم يجعل نصب عينيه مصلحته الشخصية قبل كل شيء . أما الإسلام والعمل على نشره فقد ظل أمراً ثانويًّا . من ذلك أن يزيد بن المهلب لم يقنع بولاية بلاد العراق التى كانت لا تفى بحاجاته ، وطمع فى ولاية خراسان لما عساها أن تدره عليه من الثروات الضخمة والأموال الكثيرة . وقد أنشد أحد الشعراء عند وفاة المهلب بن أبى صفرة :

---

(١) النرشخى : وصف بخارى (طبعة شيفير) ص ٤٦ : ٥١ وما يليها .

(٢) الطبرى ٢ : ١٣٦٤ ، البلادرى ص ٤٢٠ و ٤٢٢ .

(٣) أشير أيضا إلى المراجع التالية ليرجع إليها القارىء إذا أراد :
البلاذرى ص ٤١٨ (موسى بن خازم وأهالى ترمذ) . الطبرى ٢ : ١٧٩ (س ١٦ ، ١٧) ، البلاذرى ص ٤٢٠ و ٤٢٢ ، — Schcfer, Chrestomathie Persane, 1, p. 28

ألا ذهب الغـزوُ المقرب للغنى   ومات الندى والجودُ بعد المهلب[1]

ولا غرو فقد كان سخاء ذلك اليمنى (المهلب) وبذخه عظيمين ، حتى إنه على الرغم من تجريده من جميع ممتلـكاته حين اعتزل الإمارة ، ظل مديناً لبيت المـال بمليون درهم ، ودفع منهـا مائتى ألف ـ ثمن ماباعه من مجوهرات ومنقولات زوجته ـ ثم سدد عنه أحد موالى أسرته (وكان عاملا فى بيت المـال) ثلثمائة ألف دينار . وأما ما بقى فقد أداه عنه عمه والى مدينة إصطخر إذ ذاك[2] . وبلغ ما كان للحجاج قبل يزيد بن المهلب ستة ملايين من الدراهم لم يستوف الحجاج منها سوى ثلثمائة ألف[3] .

من تلك المثل نرى أن ما كان يمتاز به الخلفاء الراشدون من البساطة فى العيش قد تغير تمام التغير فى عهد من أتى بعدهم من خلفاء بنى أمية . وليس من العدل أن نتهم الأمويين وحدهم بذلك فى الوقت الذى كان أبناء هؤلاء الرجال الذين تم على أيديهم فتح القادسية واليرموك متأثرين بنفس هذه النزعة التى تأثر بها آباؤهم الثملون بنشوة هذه الانتصارات التى أحرزوها بسيوفهم . ولم يكن بد من أن يكون هناك ثمة أثر عكسى لتلك الفتوحات . وذلك ما حدث فعلا . وإلى القارئ ما كتبه المسعودى عن النتائج المحتومة لذلك الفتح ، تلك العبارة التى تعتبر فريدة فى بابها . وقد ظهر أثر ذلك لأول مرة فى عهد عثمان بن عفان ، مما حدا بذلك المؤرخ العربى النزيه أن يقول :

(١) الطبرى ٢ : ١٢٥١ .

(٢) الطبرى ٢ : ١٠٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٢١٣ .

« ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة . فأين عمر ممن ذكرنا وأين هو عما وصفنا[1] ؟ » .

وقد قال رُتبيل (أمير سجستان) يومًا لأصحابه : « ما فعل قوم كانوا يأتون خماص × البطون سود الوجوه من الصلاة نعالهم خوص ؟ . . . فقد كانوا أوفى منكم عهداً وأشد بأسًا وإن كنتم أحسن وجوهًا »[2] .

ومع ذلك فقد كان الأمويون يختارون عمالهم وولاتهم من بين أولئك المهدين فى النعمة والترف ، والذين تعودوا الاستمتاع بما فى الحياة من عبث ولهو دون أن يذوقوا عناء العمل ومشقته .

لذلك لا ندهش إذا كانت الروح التى سادت فى عهد بنى أمية روحًا غير دينية . ولن تعوزنا الأدلة على صحة ما نقول . فقد كان فى الحملات التى جردوها والغارات التى شنوها على الـكفار أكبر شاهد على صحة ما ذهبنا إليه . بقى علينا بعـد ذلك أن نعرض لتلك الروح التى كانت تسيطر على النظام الإدارى فى الولايات الإسلامية فى عهد بنى أمية .

(١) المسعودى (مروج الذهب) ج ٤ ص ٢٥٥ (لا ٢٥٣ كما ذكر المؤلف) وما يليها .

× بمعنى جياع .

(٢) البلاذرى ص ٤٠٠ وما يليها .

ويعزى إلى دينار أمير نهاوند هذا الرأى عن العرب وقبولهم للرشوة . للطبرى ١ : ٢٦٣١ (س ١٧ وما يليه) .

— ٣ —

الخــــراج

لم يثقل نظام الضرائب الذى سنه عمر بن الخطاب كاهل الأهلين على ما ذهب إليه الأستاذ فون كريمر (Von kremer) . وقد أضاف إلى ذلك أن الذى كان يسخط أهالى السواد[1] ويزيد فى حنقهم إنما هى الطريقة التى كان يسلـكها عمال الخراج فى جباية تلك الأموال . يتبين لنا هذا أيضاً مما حدث فى مصر؛ فقد كان خراجها مليونين من الدراهم (؟) فى ولاية عمرو بن العاص .

---

(١) Streifziüge, p. 19.

× قد أخطأ فان فلوتن فى نقله عن البلاذرى . فـكل ما ذكره البلاذرى أن عمرا « جبى خراج مصر وجزيتها ألفى ألف وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أربعة آلاف ألف » . والمراد بها هنا الدنانير دون الدراهم . فقد ذكر البلاذرى فى مكان آخر « أن عمرو بن العاص وضع الخراج على مصر فجعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أرادب طعاما وعلى رأس كل حالم دينارين » . على أن ما ذكره البلاذرى بعيد التصديق ، إذ لو خصصنا لجزية الرءوس مليونا اقتضى أن يكون عدد من فرضت عليهم الجزية خمسمائة ألف إذا فرضنا أن من فرضت عليهم كانوا ربع السكان . ولا غرو فإن الجزية لم تفرض إلا على البالغين دون الشيوخ والنساء والأطفال .

وأبعد من هذا ما ذكره ابن عبد الحـكم (فتوح مصر ص ٧٨) من أن عدد من ضربت عليهم الجزية من المصريين فى عهد عمرو بن العاص كان ثمانية آلاف ألف (٨,٠٠٠,٠٠٠) . وعلى ذلك يكون عدد سكان مصر ٣٢ مليون نسمة ـ وهو غير معقول ـ إذ لو كان هذا العدد صحيحا لبلغت جزية الرءوس وحدها ١٦ مليونا من الدنانير . ونحن نميل إلى الأخذ بما رواه المقريزى (الخطط ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠) من أن خراج مصر بلغ فى ولاية عمرو بن العاص ١٢ مليونا من الدنانير بما فى ذلك جزية الرءوس ـ المترجمان .

ولم يلبث ذلك الخراج أن بلغ أربعة ملايين من الدراهم (؟) × فى ولاية خلفه[1] . ويتضح من ذلك أن عمر بن الخطاب لم يضع نظامًا ثابتًا لتلك الضرائب . ويرى فون كريمر أن خراج مصر إنما زاد هذه الزيادة على أثر تعديل الجزية بجعلها أربعة دنانير بدلا من دينارين[2] . ولا أدرى أين ذكر هذا التعديل . على أن ما ذكره البلاذرى يفسر لنا ذلك حيث يقول : « قال عثمان لعمرو إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها » . فقال عمرو : « لأنكم أعجفتم أولادها » .

وكانت الحال أسوأ من ذلك بكثير فى عهد بنى أمية ، إذ لم يكن لزامًا فى نظر هؤلاء الخلفاء ولا فى نظر ولاة الأقاليم أن يراعوا القواعد التى قررها أسلافهم . وقد كتب معاوية إلى وردان واليه على مصر : « أنْ زِدْ على كل امرىء من القبط قيراطاً . فـكتب إليه وردان : كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم ؟ »[3] .

ومن هذا يتبين لنا أن الأمويين كانوا يتجاوزون حدود الضرائب التى فرضتها النظم القديمة . ولم يكن الحال ببلاد اليمن خيرا من ذلك . فقد ارتـكب فيها أحد أخوة الحجاج شر أنواع الجور والعسف . فـكان يصادر أملاك

---

(١) البلاذرى ص ٢١٦ و ٢١٨ .

(٢) Culturgeschichte, I, 61

(٣) البلاذرى ص ٢١٧ Von Hammer ص ٨٣ ومايليها . كوابتشك ص ٩١ . الطبرى ١ : ٢٥٨٤ . كان يكتب الخلفاء الأمويون إلى ولاتهم بمصر أن هذه البلاد قد فتحت عنوة وأن أهلها أرقاء للحكومة الحق فى أن تزيد فى مقدار الجزية المفروضة عليهم ، وأن تعاملهم كما تريد . أنظر أيضاً .

دوزى : تاريخ المسلمين فى الأندلس ج ١ ص ٢٣٣ .

الأهالى وأموالهم ، كما أثار حنقهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة (وظيفة) ، وذلك عدا العشر الذى قرره الإسلام[١] . وإن حدوث هذا فى ولاية عربية محضة له معناه ، فهو يبين لنا أن الحالة كانت أسوأ بكثير فى البلاد التى فتحها العرب . وقد اعتاد جباة الخراج فى بلاد فارس تقويم المحاصيل قبل زمن الحصاد وإرغام المزارعين على النزول لهم عنها بثمن أقل من الثمن الذى يتبايع به الناس[٢] . وإن ما ورد من التفاصيل فى كتاب الخراج لأبى يوسف ليكشف لنا عن نظام الإدارة ببلاد الجزيرة فى عهد بنى أمية . فقد أضاف زياد بن غنم الفهرى والى هذه البلاد فى عهد عمر بن الخطاب من تلقاء نفسه ديناراً فوق الضريبة المقررة التى كانت تؤخذ عيناً[٣] . على أن ذلك لم يكف لسد جشع الضحاك بن عبد الرحمن والى هذه البلاد فى عهد عبد الملك . فقد أمر بعمل إحصاء جديد للسكان عامة ، وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة . ومعنى ذلك أن كل فرد كان ملزماً بأن يبين قيمة كسبه

(١) البلاذرى ص ٧٣ .

(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاه : بلغنى أن عمالك يخرصون (الخرص الحزر وهو التكهن أو الحكم بالظن) الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفا (القرف القشر . وقرف الخبز ما يتقشر منه ويبقى فى التنور . وقرف الأرض ما يقتلع منها مع البقول والعروق ولحاء الشجر . والمراد أخذ الشئ بقيمة تافهة) على قيمتهم التى قوموها ، وأن طوائف من الأكراد يأخذون العشر من الطريق .

(٣) كتاب الخراج (طبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ) ص ٢٣ (فى النهاية) . ويؤخذ من قول أبى يوسف « فلم يبلغنى أن هذا على صلح ولا على أمر أثبته ولا برواية عن الفقهاء ولا باسناد ثابت » أو النظام الذى أدخله عمر لم يتناول بلاد الجزيرة كما ذهب إلى فون كريمر (ج ١ ص ٦٠) .

طيلة العام ، فيترك الوالى له ثمن الكسوة والغذاء وبعض النفقات الضرورية ، ثم يستولى على ما بقى باسم بيت المال . وكان من أثر ذلك أن زادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل[١] . كذلك كان الحال فى بلاد العراق حيث كانت تزيد الضرائب الاستثنائية فى عبء ما كان يثقل الأهلين من الضرائب المقررة . وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالى من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً[٢] ، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب ؛ وقد رأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم أثقل وزناً من تلك الدراهم التى فرضها الخليفة الثانى مما كان يزيد زيادة فاحشة فى الضرائب التى كان يدفعها الأهالى . ويتبين لنا من ذلك النظام الذى أقره عمر بن الخطاب أن الأهلين كانوا يدفعون عدا الضريبة المقررة نفقات صك النقود وضربها وكذا نفقات العقود الرسمية ومرتبات عمال الإدارة . هذا عدا هدايا النيروز والمهرجان التى لم تلبث أن أصبحت عبئاً على عبء[٣] .

على أن تلك الأموال المقررة والضرائب الاستثنائية ، وإن أثقلت كاهل أهالى البلاد المغلوبة ، لم تكن وحدها كل ما فى النظام الإدارى من نقص ، ذلك النظام الذى لم يكن يرمى إلا إلى غاية واحدة هى جباية الأموال . فقد كان ثمة ما هو أدهى من ذلك وأخطر ، ذلك هو ما عرف عن هؤلاء العمال من الخيانة والعبث بأموال الدولة وإسراف بيت المال وإنفاقه الأموال عن سعة ـ تلك المثالب التى لا تقل خطورة عما تقدم . ولا غرو فقد كانت تتخذ

(١) كتاب الخراج (ص ٢٣) .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ . الطبرى ٢ : ١٣٦٦ . Fragmenta Historicorum arabicorum, p. 47

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥٨ وما يليها . الطبرى ٢ : ٦٥ (س ٩) ، ١٦٣٦ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٩٩ .

إمرة إحـــدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال من باب غير شريف . يدل على ذلك أيضاً ما شاع على الألسن فى تلك الولايات « أكل ولاية أو حلبها كما تحلب الناقة — تلك العبارة التى طالما كانت تستعمل للدلالة على ذلك المنصب[١] .

وطالما قدمت الشكايات الكثيرة منذ أيام عمر بن الخطاب ضد الولاة وعمال الخراج الذين كانوا يجمعون الأموال لأنفسهم باسم الدولة . وقد نقل لنا البلاذرى (ص ٣٨٤) قصيدة غاية فى الغرابة يتهم فيها صاحبها عدداً كبيراً من المحافظين وحكام الرساتيق والمدن فى خوزستان وفارس وميديا الذين كانوا — كما يقول — « يسيفون مال الله فى الأدم الوفر » ، نذكر منها هذا البيت :

نؤوب إذا آبوا ونغزوا إذا غزو   فأنَّى لهم وفرٌ ولسنا أولى وفـر

وقلما كان يجد الولاة عناء فى إخفاء خيانتهم واختلاسهم . فنرى بعض الحكام فى أواخر عهدهم بالولاية يطلبون من الخليفة أن يعفى من كان تحت إشرافهم من الموظفين من أن يقدموا بياناً دقيقاً عما جمعوه من الأموال أثناء ولايتهم لتلك الأقاليم[٢] . وقد سَنَّ عمر بن الخطاب نظامًا لملافاة تلك المثالب الإدارية ، فوضع نظام « المقاسمة » ، وذلك بعمل إحصاء دقيق لثروة الولاة قبل توليتهم ثم إلزامهم عند اعتزالهم أعمالهم بدفع نصف الأموال التى جمعوها أثناء ولايتهم والتى لا تسمح بها رواتبهم[٣] . وعلى هذا رد معاوية إلى بيت المال

(١) الطبرى ٢ : ١٠٢٩ (س ٢٦) . البلاذرى ص ٩٤ ، ٢٦١ ، ٤١٤ .

(٢) الطبرى ٢ : ٦٩ .

(٣) البلاذرى ص ٨٢ ، ٢١٧ ، ٣٨٥ . الطبرى ١ : ٢٨٦٤ س ٤ .
وقد تكلم اليعقوبى (ج ٢ ص ١٨١) عن بعض نواحى الضعف فى هذا النظام .

نصف الثروة التى جمعها « ليطيب له الباقى »[١] . وقد اتبع معاوية مع موظفيه نفس هذه الطريقة (المقاسمة) عند ما ولى الخلافة[٢] .

ولم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال . فقد كان هناك طائفة من صغار الموظفين لا همَّ لهم إلا الإثراء باختلاس أموال الدولة وسلبهم كل ما يصل إلى أيديهم . وكان من أثر تلك الصعوبات التى كانت تعترض الحكومة فى سبيل استرداد تلك الأموال أن فكر والى العراق (عبيد الله بن زياد) فى استبدال أولئك العمال من العرب بغيرهم من الفرس . ومن ذلك الحين كان يعهد إلى الدهاقين (كبار ملاك الأراضى من هؤلاء) بجباية الخراج . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدهاقين « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة »[٣] . على أن بعض الموظفين قد استطاع بالرغم من ذلك جمع الثروات الضخمة ، إذ كانوا يضعون الأموال التى يجمعونها أمانة عند أصدقائهم أو ذوى قرباهم . وكان بعض الولاة من ذوى المآرب الشخصية فى الإبقاء على بعض خلصائهم فى تلك المناصب النفعية يغمضون أعينهم عن كل ما كان يرتكبه هؤلاء مع الأهلين من جور وعسف[٤] .

قد بينا قبل كيف كان الخلفاء الراشدون يحاولون أن يستردوا إلى بيت المال ولو جزءًا يسيرًا من تلك الأموال التى كان يجمعها العمال ظلمًا . أما الأمويون فقد سنوا نظامًا غاية فى الدقة للأشراف على جباية تلك الأموال . ففى عهد

(١) الطبرى ٢ : ٢٠٢ (س ٦ وما يليه) .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) الطبرى ٢ : ٤٥٨ ، ٩٩٥ (س ١٩) .

(٤) راجع أيضاً ما ذكره أبو يوسف من المعلومات الطريفه فى كتاب الخراج ص ٦١ (س ١٦ وما يليه) .

عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية . وكانوا يعذبون حتى يقروا بأسماء من أدعوا عندهم ودائعهم وأموالهم ويردوا إلى بيت المال ما سابوه من الأموال ، وهو ما يسمى بالاستخراج أو التكشيف[1] . وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » . وكان ذلك التحقيق لا يلبث أن يتجاوز الحدود المشروعة ويغدو من شر وسائل الأخذ بالثأر والانتقام الشخصى ، ذلك الانتقام الذى كان يصبه عليهم حنق أولئك العمال المستبدين وتعطشهم للثروة ونهمهم للمال . وقد عم الفساد فى آخر عهد بنى أمية ، حتى كان أول ما يقوم به الوالى من الأعمال حبس سلفه ومن إليه من الموظفين والصنائع والأتباع ، ثم إطلاق من حبسهم وضيق عليهم ذلك الوالى السابق . وكان خالد بن عبد الله القسرى والى العراق يتناول راتبًا سنويًّا قدره ٢٠ مليونًا من الدراهم ، بينما كان ما يختلسه يتجاوز المائة مليون . وقد حبسه يوسف بن عمر هو وثلثمائة وخمسين من موظفيه . وبذلك استطاع أن يسترد منه أكثر من ٧٠ مليونًا[2] .

كل هذه الأموال الكثيرة والثروات الضخمة تحمل الإنسان على أن يبحث عن الوسائل والطرق التى جمعت بها ، كما أنها تسهل عليه فى الوقت نفسه إدراك النتائج السيئة لذلك النظام الذى كان متبعًا فى جباية الخراج . كان الموظفون وعمال الخراج ، الذين لا يرتابون فيما ينتظرهم عند اعتزالهم أعمالهم والذين لم يريدوا أن يدعوا تلك الفرصة للإثراء وجمع الأموال الضخمة تمر

---

(٢) الطبرى ٣ : ٥٠٢ . العقد الفريد (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٣) ج ١ ص ١٧٩ ، ج ٣ ص ١٣ . وتدل كل من كلمة « توظيف » (اليعقوبى ج ٢ ص ٣٨٨) وكلمة « استيفاء » الطبرى ٢ : ١٤٦٠) على شئ واحد .

(١) الطبرى ٢ : ١٥٨١ ، ١٧٦٤ ، ١٨٤١ . اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥٥ ، ٣٨٨ .

بهم دون أن ينتهزوها ، لا يترددون فى أن يرهقوا الأهالى ويثقلوهم بأنواع الضرائب المختلفة . وهكذا كانوا يستطيعون وقت التحقيق معهم أن يؤدوا إلى الحكومة جزءًا من تلك الأموال ليطيب لهم الاستمتاع بجزء كبير من تلك الثروات التى كدسوها . ومما لا ريب فيه أن عبء ذلك الجور الذى كان يتزايد من حين إلى آخر ، إنما كان يقع على كاهل تلك الشعوب المغلوبة على أمرها ، التى قلما كانت تصل شكاياتها إلى السلطة المركزية للحكومة[1] ، والتى كانت تجبى منها تلك الأموال بكل وسائل العسف والتعذيب .

وكانت الطريقة التى تجبى بها هذه الأموال مخجلة على ما ذكره الفقهاء . ففى اليوم المحدد لجباية تلك الأموال كان يذهب المطالبون بها إلى ديوان الخراج حيث يجلس عامل الخراج على أريكة عالية ، ثم يتقدم إليه هؤلاء أذلاء خاضعين ، فيمد الواحد منهم يده التى يحمل فيها الضريبة فيدفعها بحيث تكون يد عامل الخراج فوق يده ، ثم يصفعه بعض الحاضرين صفعة يشيعه بها إلى الباب . وكان عامة الشعب يحضرون تلك المناظر التى كانوا يعتبرونها رمزاً لانتصار المسلمين على الكفار[2] .

وأما من عجز عن تأدية الخراج فكان الجباة يسلكون معه بعض وسائل التعذيب . من ذلك تعريضه للشمس المحرقة ، ذلك التعذيب الذى كان يضاعف أحياناً بصب الزيت على الشخص المعذب .

وكانوا يلزمونهم بحمل بعض الحجارة أو جرار الماء فى رقابهم ، كما كانوا يوقفونهم على قدم واحدة ساعات طويلة ، ثم يوثقونهم بحيث لا يستطيعون

---

(١) يرجع إلى الطبرى (٢: ١٣٥٤ أو الملحق رقم ٣) لمعرفة أعمال السفراء الذين كانوا يوفدون إلى مقر الخلافة لبسط تلك الشكايات .

(٢) كرابتشك ص ٨٧ .

السجود للصلاة[١] . وفى بلاد ما وراء النهر كان يدع عمال الخراج الدهاقين فى الشمس نازعين عنهم ثيابهم ثم يرمونهم بزنانيرهم فى وجوههم[٢] × .

---

(١) كتاب الخراج ص ١٨ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧١ .

(٢) أنظر الطبرى ٢ : ١٥١٠ .

× نشك كثيراً فى صحة ما نقله فان فلوتن عن كتاب karabaceck, das Arabische Papier, p. 87 فيما يتعلق بالطريقة التى كان يجبي بها المسلمون الخراج . والذى يغلب على الظن أن هذا مدسوس على فقهاء المسلمين ، لاسيما وأنه لم يذكر لنا المرجع العربى الذى أخذ عنه صاحب هذا الكتاب .

على أن هذا على فرض صحته لا ينهض دليلا على ما ذهب إليه فان فلوتن ، إذ أن ما ذكره لم يعد أن يكون رأيا من آراء بعض الفقهاء . ولم تكن أقوال الفقها وآراء المشرعين فى يوم من الأيام حجة للحكم على شعب من الشعوب بحكم من الأحكام ، وإنما يعتمد على الحوادث الجزئية والأمثلة التاريخية فى تقدير تلك الآراء والحكم بصحتها . وقد أدلى المؤلف برأيه أعزل من كل دليل معطلا من كل حجة ، إذ لم يذكر لنا حادثه معينه تدل على أن المسلمين كانوا يجبون الأموال من أهالى البلاد التى فتحوها على هذا النحو . ولا تعوزنا المثل الصحيحة على فساد ذلك الرأى . ولا غرو فإن كتب الحديث حافلة بالنهى عن المثلة والعطف على الضعفاء والرفق بالحيوان بله الإنسان .

أضف إلى ذلك وصايا الخلفاء الراشدين لأمراء الجند . من ذلك وصية أبى بكر الصديق لأسامة بن زيد وجنده عند رحيلهم إلى الشام (الطبرى ج ٣ ص ٢١٣) « يا أيها الناس ! قفوا أوصكم بعشر احفظوها عنى ، لا تخونوا ولا تغلوا (تخونوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

كذلك عهد عمر لأهل إيليا (الطبرى ج ٤ ص ١٥٩) . أنظر ص ٨٠٧ بهامش هذا الكتاب — المترجمان .

— ٤ —

حالة الموالى السياسية والاجتماعية

أخشى أن يتهمنى القارئ حين أقدم له تلك الصورة السوداء لحكم بنى أمية بأننى أحاول أن أطبق تلك المثل التى أتينا على ذكرها على جميع الأقاليم التى كانت تحت سلطان الأمويين ، أو على الأقل طيلة عهد بنى أمية . على أن ما ذكرته من نقص وعيب فى حكم الأمويين لم يكن إلا استعراضاً لتلك الحوادث التى ترويها لنا المصادر التى اعتمدنا عليها . ومع ذلك فلا مندوحة من التسليم بصحة هاتين الملاحظتين : (١) إننا لا نعلم إلا الجزء اليسير عما نزل بالشعوب المحكومة من ألم وحيف رغم التسليم بنزاهة المصادر العربية وعدم تحيزها فيما يتعلق بحالة تلك الشعوب (٢) إن ما ترويه لنا تلك المصادر مهما كان ناقصًا وضئيلًا فإنه يبرر الرأى الذى ذهبنا إليه ، وذلك بتأييدها الحكم الذى ذكرناه آنفاً عن بنى أمية وحكومتهم : ذلك أن المسألة لم تصبح بعد فى نظرهم مسألة دعاية دينية ، بل مسألة نهب وتخريب يشوبه شىء من النظام .

ولكن قد يتساءل المرء : ألم تكن ثمة وسيلة لمن فرضت عليهم الجزية يتفادون بها ذلك الخراج وتلك الضرائب ؟ ألم تكن هناك تلك الوسيلة الفذة ، وهى خروج المغلوبين عن أملاكهم العقارية واعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلى صفوف الفاتحين من العرب يقاسمونهم تلك الغنائم التى كانوا يدفعونها إليهم من قبل ؟ .

بلى ! وذلك ما فطن له واستغله منذ اللحظة الأولى معظم الدهاقين وهم ملاك الأراضى من الفرس . وقد أكسبهم ما كان لهم من السيادة أيام حكومتهم الأولى نفوذاً كبيراً على الرعايا من صغار الزراع . ومن ثم لم يلبث هؤلاء أن

أسندت إليهم المناصب الإدارية الهامة وجباية الأموال الأميرية ، وذلك بفضل ما كان لهم من معرفة تامة بتلك البلاد وحال أهلها . ولذلك أصبح هؤلاء الدهاقين بطانة للحكومة ، تتخذ منهم الجواسيس والمفوضين السياسيين[(١)] . وهكذا احتفظت طائفة النبلاء الإقطاعيين من أهل فارس بما بقى لهم من سلطان باعتناقهم الإسلام ، كما جمعوا الثروات الضخمة وتمتعوا بنفوذ كبير ، وذلك باستئثارهم بجباية الخراج[(٢)] .

بقى علينا أن نبين حال الطبقة الدنيا من هؤلاء الذين كان يسميهم مؤرخو العرب العلوج . وإن ما كتبه المؤرخون لن يدع فى نفس القارئ شكاً فى حالة هؤلاء . فإن اعتناقهم الإسلام لم يأت لهم بخير ، اللهم إلا ذلك الأمل الضائع والفشل المرّ . فقد وقف طمع العرب وكبرياؤهم ، ثم شرههم ونهمهم عقبة كأداء فى سبيل إصلاح ذلك العنصر المضطهد رغم اعتناقه الإسلام . وهـذا ما سنعرض له ، بادئين بذكر الحالة الاجتماعية لأولئك الجدد فى الإسلام أولا ، معقبين على ذلك بالكلام عن حقوقهم السياسية .

أما أولى تلك المسائل فسوف لا يصعب علينا معالجتها ، وذلك بفضل البحوث التى قام بها كل من الأستاذين فون كريمر وجولد تزيهر[(٣)] . لا يخفى أن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا منذ اعتناقهم الإسلام ببعض القبائل العربية على أن يكونوا موالى لتلك القبائل . ومن ذلك الحين نرى أن حالة الموالى التى كان لا يشوبها أية شائبة من شوائب الخسة أو الانحطاط قد غدت

---

(١) الطبرى ٢ : ٤٩٢ .

(٢) Von kremer Streifzûge, p. 14 et. n. 4.

(٣) Von Kremer, Culturgeschichte, II. 154 suiv. Streifzûge, p. 15 suiv.; Goldziher, Islamische Studien, I. 104 suiv.

على النقيض من ذلك منذ اللحظة التى ابتدأ يزيد فيها عدد من فرضت عليهم الجزية من أولئك الموالى زيادة كبيرة . هذا إلى ما كان من احتقار العرب الذين كانوا لا يحترمون سـوى مهنة الحرب أولئك الموالى واعتبارهم إياهم طائفة منحطة لا تكاد تختلف عن طائفة الرقيق فى شئ ، وذلك لامتهانهم طبقات العمال التى نشأ منها هؤلاء وازدرائهم تلك المهن التى كانوا يزاولونها . وليس بعيداً — على ما يظهر لى — أن يكون لما فى كلمة مولى من اللبس — تلك الـكلمة التى طالما كانت تطلق أيضاً على الرقيق المعتق — أثر كبير فى احتقار العرب لتلك الطائفة . ولا غرو فقد شاع عند العرب إطلاق لفظ عبـد أو رقيق على المولى[(١)] ، كما كانوا عدا ذلك ينادونهم بألقابهم دون أسمائهم كما ينادون الرقيق[(٢)] . وإذا ما أرادوا الزواج فلم يكن بدمن الرجوع إلى أسـيادهم الذين كان لهم حق المعارضة فى تلك العقود . وكانوا بمعزل عن باقى الجيش ، لهم رؤساؤهم الخاصون بهم ، كذلك لا يبعد أنهم كانوا يحاربون راجلين[(٣)] . وكانوا يقنعون بأحط الأماكن وأردئهـا فى

---

(١) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥٥ ؛ الطبرى ٢ : ٦٨٤ ؛ Van Gelder, Mokhtar, p. p. 52

دوزى : تاريخ المسلمين فى أسبانيا ج ٢ ص ٧٢ وما يليها .

ليس من المحقق أن ماورد فى الطبرى (٢ : ٥٩٦) (س ١٨) ، ٦٢٣ (س ٥) له أية علاقة بالموالى .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) الطبرى ٢ : ١٩٢٠ (س٤) . قال أمير خراسان لأحد العرب من حاشيته: « وأنت وأهل بيتك ممن أراد أسد بن عبدالله أن يختم أعناقهم ويجعلهم فى الرجالة » . ويظهر أن هذا كان خاصاً بالذميين (أنظر مقدمة كتاب البلاذرى والطبرى ٢ : ١٢٥٢ (٤) ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٩٢ وما يليها) . ويغلب على ظنى أن الجند الرجالة لم يكونوا غير الموالى أنفسهم .

Opkomst der Abbasiden pp 98. 105 (n !)

الاجتماعات ولا يدخلون مساجد العرب ، إذ كانت لهم مساجدهم الخاصة بهم × × .

حسبنا تلك المثل الناطقة فإنها وحدها تكفى لأن تمدنا بفكرة واضحة عن حالة أولئك الموالى الاجتماعية . ونحيل القارئ المتعطش للاستزادة فى هذا الموضوع إلى مؤلفات الأستاذين فون كريمر وجولد تزيهر التى أشرنا إليها قبل . وسنمضى الآن فى استقصاء حالتهم السياسية لنبين أن أن جور الحكومة معهم قد انتهى إلى عدم اعترافها لهم بشىء من الحقوق التى كانت لأخوانهم من العرب . ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذى أقره عمر ، والذى يجده القارئ فى كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى ص ٤٦١ ، Von kremer, Culturgeschichte, I. 167 suiv كان يفرض لكل مسلم دُوّن اسمه فى سجلات الحكومة (الديوان) مكافأة سنوية عن خدماته الحربية (وهى العطاء) ، عدا ما كان يمنحه من الأجر (فريضة) لابنائه ، لا فرق فى ذلك بين العرب والموالى .

على أن هناك أمراً آخر جدير بالملاحظة ، ذلك أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً فى عهد هذا الخليفة . لذلك أصبح العطاء وقفاً على الدهاقين الذين ساعدوا العرب فى فتوحاتهم(١) . ويمكننا أن نستخلص مما ذكره البلاذرى أن العرب فى ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم ممن دخلوا فى

× × هذه مسألة قومية بحتة لا دخل للدين فيها . ولا غرو فقد دعا الإسلام إلى المساواة بين جميع المسلمين لا فرق بين عربى ومولى وإحلال العصبية الدينية محل العصبية القومية — المترجمان .

(١) البلاذرى ص ٤٥٧ فى النهاية .

الإسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم(١) . وقد ذكر اليعقوبى أن علياً وحده هو الذى تمسك بالقواعد القديمة(٢) . ولا نعلم تمام العلم إلى أى حد اتبع الأمويون الطريقة التى خطها عمر فيما يتعلق بالأعطيات السنوية . على أنه لا مندوحة من أن نفرض ذلك الفرض ، وهو أنهم قد أنقصوا نقصاً كبيراً أعطية هؤلاء الذين باءوا بسخطهم (كالعلويين مثلاً) ، كما استبدوا بما فى بيت المال من الأموال يبذلونها لأفراد أسرتهم(٣) . ومع ذلك فقد كان الأمويون على جانب كبير من الحكمة وبعد النظر لتلافى ما عساه يجره عليهم ذلك النظام الذى كان يقضى بنقص عطاء رعاياهم من العرب عن القدر الذى فرضه لهم عمر بن الخطاب . ولا غرو فقد عرفوا سلطان المال على النفوس . وسنرى إلى أى حد كانوا يحسنون استخدامه ويشترون به حيدة خصومهم .

أما الموالى فكانوا على العكس من ذلك . فقد زاد عددهم فى المدن ، وبخاصة فى بلاد العراق ، للأسباب التى سنذكرها . كانت البلاد التى يفتحها العرب عنوة (كسواد العراق كله تقريباً وكذا سورية ومصر) تصبح وقفاً على المسلمين . فكان الأهالى (الزرّاع) يظلون فى زراعتها على أن يقدموا للفاتحين جزءاً من الغلة ضريبة عقارية (خراج) ، بينما كانوا يستمتعون بحرية التدين وحماية المسلمين لهم نظير مبلغ معين يدفع عن رأس كل فرد يسمى جزية (وهى الضريبة الشخصية)(٤) . وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا

(١) المصدر نفسه ص (٣) .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) الطبرى ٢ : ٥٣٤ و ١٠٢٠ (١١) .
Von Kremer, Gesch. der herrsch. Ideen, p. 336 suiv., 393 suiv

(٤) يجب ألا نخلط بين هذه الضريبة المسماة جزية الرءوس وبين الخراج وهو الجزيه العقارية كما سبقت الإشارة إليه (ص ٢) — ص ١٥ من الترجمة .

الإسلام مع بقائهم على دفع الخراج[1] . ومن ثم لا ندهش أن نرى الجم الغفير منهم يفضل ترك ما يملكه من الأرض والرحيل إلى المدن والإقامة بها جنباً لجنب مع العرب ليعاونوهم إذا ما طلبوا مساعدتهم ، ولا سيما بعد وقوفنا على ما كان فى نظام الخراج وجبايته من سوء ونقص .

وكان لزاماً أن تعرض تلك المشكلة ، مشكلة توزيع أجور تلك النجدات الجديدة . ومن السهل علينا أن ندرك إلى أى حد كانت تختلف وجهة نظر كل من العرب والموالى فيما يتعلق بهذه الأجور بقدرما كان هناك من التعارض بين مصالح كل من الفريقين . أما العرب فإنهم لم يرضوا أن يقاسمهم الموالى ثمرات ما يفتحونه من البلاد تلك المقاسمة التى كانت تنقص نصيبهم منها نقصاً محسوساً . وأما الموالى فكانوا على العكس من ذلك يزعمون أن العطاء إنما هو حق لجميع المسلمين[2] .

وقد ظهر أثر ذلك لأول مرة فى الثورة التى أثارها المختار فى عهد مروان الأول بعد أن ضمن مساعدة العنصرين العربى والفارسى من أهل الكوفة . ومما ندهش له نقص العرب الذين اشتركوا فى تلك الثورة نقصاً مطرداً ، بقدر ما كان يزيد عدد الموالى الذين استمالهم إليه زعيم تلك الثورة زيادة كبيرة بما كان يدره عليهم من العطاء . ولا غرو فانه « لم يكن فيما أحدث المختار شيء هو أعظم عليهم من أن يروا المختار يمنح الموالى نصيبهم من الفيء (هو المال الذى تدره عليهم البلاد التى كانوا يفتحونها) » . وطالما كانوا يقولون له : « عمدتَ إلى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً .

---

(١) فان برشم ص ٣٥ .

(٢) الطبرى ٢ : ١٣٥٤ .

فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا »[1] .

وليس أدل على شعور العرب نحو غيرهم من الشعوب الأخرى من تلك العقيدة التى كانوا يدينون بها ، وهى أن أملاك الأجانب وأرضهم ثمن لتركهم لهم حرية البقاء على وثنيتهم ، كما أنها جزاء من الله للمؤمنين منهم . ولم يكن بد من أن ينتهى هذا الزعم بتعصب الشعب العربى لبنى جنسه وتشبثه بأرجحيته وأفضليته على من سواه من العناصر الأخرى . ولم يرض الفاتحون من العرب الذين لم يكن بد من أن تنتهى مهمتهم بمجرد اعتناق الشعوب المغلوبة للإسلام أن يتركوا ثمرات فتوحاتهم . وكان لذلك أسوأ الأثر لا سيما فى أيام الحجاج والى العراق من قبل عبد الملك ثم من قبل الوليد ، ذلك الوالى الذى اشتهر بالقسوة والشدة .

ولقد شغل ازدياد دخول هؤلاء فى الإسلام ، ولا سيما أولئك الذين ظهرت فيهم روح التمرد فى ثورة المختار ، بال الحكومة فى نفس الوقت الذى تدهورت فيه ماليتها بسبب إمحال كثير من الولايات أيام الحجاج الذى اختاره بلاط دمشق لعلاج الأمور فى بلاد العراق .

وتتلخص سياسة ذلك الأمير الجديد فى هذه الكلمات : يجب أن تعود بلاد العراق — مهد المعارضة التى قام بها الموالى — معقلا للجيوش العربية كما كانت من قبل . وهكذا اضطر الموالى الذين كانوا يتطلعون إلى مساواتهم مساواة تامة بإخوانهم فى الدين من العرب للعودة إلى أرضهم ودفعهم الجزية كما كانوا يدفعونها من قبل .

---

(١) الطبرى ٢ : ٦٥٠ وما يليها .

Von Kremer, Herschende Ideen, p. 328

وإنا لمدينون أيضاً للأستاذ فون كريمر بتلك المعلومات عن ذلك الحادث الهام فى تاريخ الدولة العربية . ولا بد أن يكون القارئ قد وقف على ذلك فى كتابه «Culturgeschichte des Orients»[1] ورأى كيف استطاع الحجاج أن يرغم هؤلاء الجدد فى الإسلام على دفع الضريبة التى كان يدفعها الكفار ، ثم تلك المقاومة العنيفة التى قاوموا بها الحجاج بانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن ابن الأشعث الذى أشعل نار الثورة على بنى أمية . وقد أخمد تلك الثورة ما أريق فيها من أمواج الدماء المتلاطمة . ولكى ترد الحكومة هؤلاء الموالى إلى واجبهم نحو الفاتحين وتسد فى وجههم كل أمل فى تحسين حالهم ، طردتهم وأرسلتهم إلى قراهم بعد أن وشمت أسماءها على أيديهم .

وقد روى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التى كان الغرض منها العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه من قبل . فقد أجمع هؤلاء على القول بأن بلاد العراق كانت بعد الحجاج أسوأ البلاد حالا[2] .

من ذلك ما ذكره اليعقوبى (طبعة هوتسما ج ٢ ص ٤٣٨ وما يليها) : « وكان (الحجاج) أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال . وانكسر الخراج فى أيامه فلم يحمل كثير شيء ، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم » ، (وكان خراجها فى عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم) .

---

(١) ١ ص ١٧٢ .

(٢) ويمكن المقارنة بين هذه الأرقام وبين الأرقام التى نقلها لنا ابن خرداذبة (طبعة دى غوية) ص ١١ . فإن هذه المبالغ وإن كانت صحيحة فيما يتعلق بالسواد فقط ، فإن الأرقام التى نقلها ابن خرداذبة تكشف لنا عن حالة البلاد بعد الحجاج . ومع ذلك فانى لا أعلق أهمية كبيرة على تلك المبالغ بقدر ما أعلق على الملاحظات التى أبداها المؤرخون عنها .

كذلك ما رواه الطبرى (٢ : ١٣٠٦) من « أنَّ يزيد (بن المهلب) نظر ، لما ولاه سليمان (بن عبد الملك) ما ولاه من أمر العراق ، فى أمر نفسه فقال إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق . ومتى قدمتها ، وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليهم صرت مثل الحجاج أدخل على الناس وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها » .

وقد ورد فى كتاب Fragmenta Historicorum Arabicorum p. 17 (cf. p. 33) « قد حاول سليمان بن عبد الملك معالجة الحالة السيئة التى جرتها سياسة الحجاج . ولا غرو فقد رسخت فى الأذهان فكرة سيئة عن حكومة الوليد بسبب تلك الشدة والقسوة التى ارتكبها واليه والتى كانت نتيجتها جدب البلاد وفقرها » .

ومن اليسير علينا أن ندرك أن تلك العبارات قد صدرت من نفوس أشربت قليلا أو كثيراً روح العداء لحكم الحجاج ، وأنها قد لا تصور حالة البلاد إلا بعد الحرب الداخلية مباشرة ، تلك الحرب التى أشعل نارها ابن الأشعث ، والتى كان يرتبط بمصيرها حياة العرش الأموى أو موته . ولكن هل نستطيع أن ننكر بعد ذلك أن تلك الحرب لم يكن لها من الخطر ما كان لها ببلاد العراق لو لم يشترك فيها ضحايا ذلك النظام الإدارى ممن أرهقتهم الضرائب الفادحة ، حتى آخر قطرة من دمائهم ؟ .

فالحجاج وإن لم تقع عليه تبعة تلك الحروب وخراب ذلك الإقليم، فهو على الأقل مسئول عن نتيجة تلك الحرب . ولعل معترضاً يعترض علىَّ بأن الحجاج لم يكن فى كل ذلك إلا وزير ببلاط دمشق ، وأن سيادة العنصر العربى غيره من العناصر الأجنبية لتتفق مع مصالح الدولة الأموية وسياستها ، لا سيما وأنها هى التى وضعت أساس تلك السياسة .

أما أنا فسأكون آخر من لا يعترف بصحة ذلك الاعتراض ولكن ليسمح لى القارئ أن أجيب عنه بذلك الجواب ، وهو أن زوال حكم بنى أمية قد أصبح محتومًا منذ اللحظة التى برهنت فيها الحوادث على أن النظام الذى كان يتشبث به الأمويون لم يكن له ثمة ما يبرر بقاءه .

ويظهر أن ذلك هو ما عناه فون كريمر حين تكلم عن الخطة التى سلكها الحجاج لقمع الثورة التى قام بها الموالى ، إذ يقول إن تلك الخطة وإن قضت على آمال الموالى والجدد فى الإسلام وطمعهم فى مساواتهم بالشعب الحاكم ، فقد كان سخط هؤلاء المضطهدين — إذا ما دققنا البحث فى استقصاء الأسباب التى انتهت بسقوط الدولة الأموية — هو السبب الذى يعول عليه .

(Streif züge, p. 24, cf. Hersch. Id. p. 334)

وسيظهر لنا مقدار صحة هذا الرأى عند دراسة الحالة فى خراسان .

— ٥ —

الحالة فى خراسان

لم يبق ببلاد خراسان عند وصول العرب إليها سوى طائفة من الولايات الصغيرة لا تربطها حكومة مركزية تدير شئونها ، ولا سيما بعد التقلبات التى مرت بها هى والولايات الأخرى فى آسيا الصغرى ثم الحكومات التى تعاقبت عليها ، وبخاصة أسرات البكتريان (Bactriennes) × وشعوب الأندوسكيث (Indo—Scythe) وغارات الهيثيين أو الهون البيض (Haital ou Huns blancs) ×× .

× بلاد آسيا القديمة ، أحدى مواطن الإيرانيين الذين يعيشون الآن ببلاد التركستان وبلاد الفرس . وحاضرتها بكتريا — المترجم .

×× من شعوب البرابرة القديمة . وهم الرحل من سكان شمالى شرق أوربا وشمالى غرب آسيا — المترجم .

وكان السواد الأعظم من سكان تلك البلاد من أصل آرى ، أقوياء البنية عراض الصدور الكثيفة الشعر ، وذلك رمز القوة وشدة البأس ، مما استرعى إعجاب الجغرافيين من العرب . ولم يكن يختلف ذلك الشعب اختلافًا جوهريًا عن ذلك الجنس الذى يسميه الرحالة المحدثون باسم تجيك (Tadjik)[1] . وقد أطلق ذلك الاسم فى الأصل على العرب (Tadjik—tàzi "Arabe") . غير أن علماء وصف الشعوب قد اتفقوا على أن التجيك (Les Tadjik) ، فضلا عن بعدهم عن أن يكونوا ساميين ، فإنهم من جنس آرى قد امتزج بالدم الطورانى[2] .

وكان سكان بلاد خراسان الأصليين من هؤلاء التجيكيين . وأما الطبقة التى كانت لها السيادة فكانت طبقة الدهاقين ، وهم ملاك الأرض والزراع من الفرس ، وكانوا يتمتعون بنفوذ كبير وبخاصة فى بلاد ما وراء النهر حيث كانوا يملكون الضياع الواسعة . أما «البخاراخودة» أو أمراء بخارى فهم فى الأصل من طبقة الدهاقين[3] . وكان الدهقان فى هَراة يحكم بجانب أمير أجنبى[4] ،

(١) أنظر المقالتين اللتين كتبتا عن Persia, Oxus فى دائرة المعارف الإسلامية البريطانية وما كتبه مسيون Specht فى المجلة الأسيوية الفرنسية ، ونلدكه فى Geschichte der Perser und Araber, p. 17 (n.5), p. 115 (n.21) ومجلة الجمعية الأسيوية (١٨٨٣) ج ٢ ص ٣١٧ وما يليها .

من سكان فارس وتركستان من الجنس الآرى . وهم حول مليونى نسمة — المترجم .

(٢) Khanikoff, Ethnographie de la Perese, p. 87 suiv Quatrefages et Hamy, Crania Ethnica. p. 503.

(٣) النرشخى : تاريخ بخارى ص ٦ .

(٤) الطبرى ٢ : ١٦٣٦ .

كما كان مركز الأشراف من كبار ملاك الأرض يختلف باختلاف الأحوال التى تحيط بهم . وكان الدهقان ـ على ما ذهب إليه نلدكه[١] ـ لا يكاد يعدو أحياناً أن يكون من بسطاء الفلاحين ، كما كان فى بعض الأحيان من طبقة الأشراف الذين يملكون بلاداً (رساتيق) برمتها .

وكان يحكم ذلك الشعب أمراء مختلفون من الأشراف الإقطاعيين القدامى فى بعض الإمبراطوريات الواسعة الأرجاء الذين طالما كانت تنم ألقابهم عن أصلهم التركى أو المغولى[٢] . أما إبان الفتح العربى فإننا نجد من أمراء سجستان رُتبيل (Rotbil)[٣] ، ومن أمراء سمنجان وروب (Simindjan et Roub) (الروبخان)[٤] ، ومن جوزجان (الجوزجان)[٥] ، ومن الُخزَر (سِبَقْرَى ؟)[٦] ، ومن أمراء الختَّل (السَّبَل) ـ بفتح السين مع التشديد وفتح الباء ـ[٧] ، ومن بذْغيس وطُخارستان (جيغويه ، الشَّذ ، ونِزَك طَرْخان)[٨] ، ومن مَرَوَرُوز

---

(١) Geschicdte der Perser und Araber, p. 440

(٢) الأسماء الآتية منقولة عن تاريخ الطبرى ، ويمكن اعتبارها تكملة لما ذكره ابن خرداذبه (طبعة دى غويه) ص ٢٨ .

(٣) الطبرى ٢ : ١٠٣٦ ، وابن خرداذبه ص ٢٩ .

(٤) شرحه ٢ : ١٢١٩ .

(٥) شرحه ٢ : ١٢٠٦ .

(٦) شرحه ٢ : ١٤٤٨ .

(٧) الطبرى ٢ : ١٠٤٠ و ١٢٢٤ . وهو من ألقاب الشرف (عند الصينيين)

(٨) كان جيغوية ملكا . وكان يقيم بالقرب منه أحد أشراف الصين ويلقب بلقب شذ (بالصينية شتز Ghè—tsz) . وأما نزك ترخان من أتباع ملك تخرستان فكان يقيم فى بذغيس .

(بذام Badhàm)[١] ، ومن الطالقان (سَهْرَك Sahrak)[٢] ، ومن الفَرْياب Frayâb (توسِك)[٣] . ومن بلاد ما وراء النهر : السُّغد وسمرقند (تَرْخون ـ تَرْخان)[٤] ، و (غَوْزك)[٥] ، ومن فرغانة × (إخشيد ، ألتار Ikhchidh, al - târ)[٦] ، ومن أمراء كى (ترك خاقان)[٧] ، ومن أمراء كِشْ (ويك Wik)[٨] ، ومن شُومان (فيلسنشب ؟ أوغيسلشتان)[٩] . وفى كابل كان يقيم كابل شاه[١٠] ، بينما كان يحتفظ مرازبة إمبراطورية آل ساسان بمراكز مستقلة فى مرو ومروروذ وسرخس وطوس وهراة × ×

---

(١) الطبرى ٢ : ١٢٠٦ .

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبرى ٢ : ١١٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ٢ : ١٢٢٩ .

وقد ذكرها المؤلف غزل والصحيح غوزك — المترجمان .

× ذكرها المؤلف فرغنة ، وضبطها فرغانة (بفتح الفاء ومد الغين) ـ المترجمان .

(٦) الطبرى ٢ : ١٣٤٢ ، ١٤٤٠ .

(٧) المصدر نفسه ٢ : ١٤٢٢ .

Torkhakhàn فى الأصل والصحيح Tork Khakhän — المترجمان .

(٨) الطبرى ٢ : ١٤٤٨ .

فى الأصل كش Kech والصحيح كس كما فى الطبرى — المترجمان .

(٩) الطبرى ٢ : ١٢٢٧ .

(١٠) المصدر نفسه ٢ : ١٢٠٦ .

كبولشاه فى الأصل وضبطها كابل شاه — المترجمان .

× × فى الأصل هراة بكسر الهاء والصحيح بفتحها كما ورد فى معجم البلدان لياقوت — المترجمان .

وقوهستان ، كما كان يحكم بلخ إصْبَهْبذ[1] . وقد قبل معظم أولئك الأقيال سيادة العرب دون كبير مقاومة ؛ كما نراهم يبادرون إلى إعتناق الإسلام (كما فعل دهاقين العراق) ويعيشون فى سلم ووئام مع غيرهم من أشراف العرب . وكذلك أصبحوا (مع غض النظر عن الاستثناءات التى لامناص منها) محل ثقة الأمراء من العرب وأصدقاء النابهين منهم . وكانوا يساعدون جيوش المسلمين ضد الأتراك من بلاد ما وراء النهر ، كما كانوا يحتفون بالرؤساء من العرب احتفاء كبيراً فكانوا يستقبلونهم فى قصورهم ويتملقونهم بتلك الهدايا الثمينة التى كانوا يقدمونها إليهم فى عيد رأس السنة وفى احتفال المهرجان[2] .

ومع ذلك فمن اليسير علينا أن ندرك أنه كان وراء مظاهر تلك الحفاوة وتلك الهدايا ما وراءها . لذلك لاندهش — بعد أن وقفنا على ما كانت عليه الادارة العربية — من أن نرى أشراف هذه البلاد ينتفعون من تلك الفتوحات باتصالهم بالجباة وعمال الخراج وإثرائهم على حساب الرعايا . ولم يكن مجرد إلقاء القبض على الكثيرين منهم هو كل ما نعلمه عن هذه الناحية ، فإن ما ذكره النرشخى فى كتابه « وصف بخارى » ليبين لنا ذلك الأمر بياناً واضحاً . ولا غرو فقد أدلى إلينا بعبارة قيمة تكمل ما رواه الطبرى تكميلاً لم نكن نتوقعه . فقد روى الطبرى عند كلامه على حوادث سنة ١٢١ هـ أن اثنين من الدهاقين قتلا تغشادة أمير بخارى وعامل الخراج من قبل العرب فى ذلك الإقليم[3] فى حضرة نصر بن سيار نفسه دون أن يذكر لنا شيئاً عن أسباب ذلك العدوان .

---

(١) الطبرى ٢ : ١٢٠٦ ، ١٢١٨ .
(٢) الطبرى ٢ : ١١٧٥ ، ١٢٢٨ (١١) ، ١٤٤٤ (١٠) ، ١٤٤٨ (١٣ وما يليه .
(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٦٩٣ وما يليها .

وإلى القارىء ما ذكره النرشخى ننقله عن كتاب Chrestomathie persane, tome I. p. 44 cf. 95 suiv. de l' èdition للأستاذ شيفير

كان نصر بن سيار يحل تغشادة من نفسه محلاً رفيعاً . ولا غرو فقد أقطعه إحدى ضياعه ثم زوجه إحدى بناته . وقد جاء تغشادة لزيارة نصر ابن سيار فى فسطاطه ؛ فلم يكد يستقر به المقام حتى حضر اثنان من الدهاقين من أسرة تغشادة وطلباً المثول بين يدى نصر . وكان يمت كل من هذين إلى أسرة ذات نفوذ عظيم ، وقد اعتنقا الإسلام على يد نصر بن سيار . فلما أصبحا بحضرته تظلما إليه من استبداد تغشادة ، قائلين إنه استولى على أملاكهما بالقوة . وكان عامل بخارى واصل بن عمرو حاضراً ، فطلب الدهقانان من نصر أن ينصفهما منه أيضاً بعد أن اتهماه باشتراكه مع تغشادة فى الاستيلاء على أملاك الغير ظلماً وعدواناً . هذه هى الأسباب التى حملت هذين الرجلين على هذا الانتقام القاسى ، كما كانت فى الوقت نفسه السبب الذى من أجله اقتضبت تلك الوقائع من رواية الطبرى .

وهل ثمة بعد ذلك ما يمنعنا من الاعتقاد بأن هذه الحال لم تقتصر على إقليم بخارى ، وأنه لو كان بين أيدينا الكثير من مثل تلك الأخبار لأمدتنا بأكثر مما رواه لنا الطبرى عن حال الكثير من الولايات الإسلامية ؟ ومهما يكن من شىء فقد شاءت الأقدار أن يأتينا ذلك النور من بلاد ما وراء النهر خاصة ، ذلك النور الذى أماط لنا اللثام عن نتائج الفتح العربى . ولا غرو فقد وقعت فيها هذه الحوادث التى أمدتنا بها تلك المصادر .

وبالرغم من أن المسلمين من العرب كانوا يعفون من جميع الضرائب ويقتسمون الغنائم ، فإن الخراسانيين لم يستطيعوا التخلص من عبء تلك الضرائب رغم اعتناقهم الإسلام ، إذ كانوا لا يزالون يدفعونها كما كان يدفعها أهل بلاد العراق .

وكانت تسمى الضريبة التى تجبى من الخراسانيين تارة بالجزية وتارة بالخراج[1] . ومن اليسير علينا أن نستنتج من ذلك أنه لم يكن فى تلك البلاد سوى ضريبة واحدة كانت تُدفع نقداً . يؤيد هذا ما ذكره الطبرى (٢ : ١٥٠٧) « خراج خراسان على رؤوس الرجال » ، ثم ما رواه اليعقوبى (طبعة هوتسما Houtsma ج ١ ص ٢٠٧) « وخراجهم على رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ جزية »[2] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أمراء كور تلك الولاية على اختلافها قد عقدوا معاهدات السلم مع العرب حين فتحوا بلادهم على أن يدفعوا لهم جزية سنوية معينة . وكانت تلك الجزية موزعة على الأهلين ، يشرف على جبايتها بعض عمال الحكومة مع أحد الدهاقين أو مع غيره من حكام الولايات[3] . وكان ينفق ما يجبى من الضرائب على تموين جيوش الاحتلال . ومن ثم لم يكن بد من أن يثير إعفاء الجدد فى الإسلام من الجزية ذلك التعارض الشديد بين هاتين المصلحتين : أولاً — مصلحة الحكومة (مسئولية الحاكم) التى لا تستطيع أن تتخلى عن دفع أرزاق الجند ، ثانياً — مصلحة أمير البلاد الذى كان يحتفظ لنفسه بما كان يزيده على الجزية من الضرائب الاستثنائية وكذلك كان الحال ببلاد العراق . وقد اضطرت الحكومة — لكى ترضى المرابطين من جند العرب الذين كان يزيد عددهم على التوالى — إلى فرض الجزية على

(١) وقد وردت هذه الإصطلاحات مختلطاً بعضها ببعض . الطبرى ٢ : ١٥٠٨ (٦ — ٨ ، ١٣ ، ١٤) .

(٢) وترجع هذه الطريقة فى جباية الخراج إلى عهد الأكاسرة (الطبرى ١ : ٢٣٧١) « وسائر السواد ذمة ، وأخذوهم بخراج كسرى على رءوس الرجال على ما فى أيديهم من الحصة والأموال » .

(٣) فان برشم ص ٥٤ وما يليها .

أنظر ملحق ١ للوقوف على المعلومات الخاصة بمرو .

الأهلين رغم اعتناقهم الإسلام . وهكذا كان بعض الولاة الذين من مصلحتهم إزدياد دخل البلاد لا يستطيعون أن يروا ذلك النجاح المطرد الذى كان يصادفه الإسلام من قلوب الأهلين بدون أن تتبلبل لذلك نفوسهم ويقلق له بالهم . ولتأييد تلك الحقيقة التاريخية نذكر للقارىء شيئاً عن هاتين المحاولتين اللتين كان يقصد بهما تحسين حال أولئك المحدثين فى الإسلام ، ثم نخصص الفصل التالى لشرح الأسباب التى حملت على ذلك .

كان عمر بن عبد العزيز أول من أمر من خلفاء بنى أمية الجراح ، عامله على بلاد خراسان ، أن يضع عمن أسلم الجزية التى كان يدفعها الكفار . ومن السهل جداً أن نتنبأ بنتائج تلك السياسة الجديدة .

وكان من أثر ذلك ازدياد اعتناق الناس للإسلام بينما نقص إيراد بيت المال نقصًا محسوسًا[1] . وقد اشترط بعض الولاة لتحاشى ذلك الخطر الختان وحفظ شىء من القرآن . على أن ذلك لم يُجْدِ نفعًا . ومن ثم كان لزامًا العود إلى فرض الجزية كما كانت من قبل أو فقد ثمار ما فتحه المسلمون من البلاد . ويظهر أن عمر بن عبد العزيز قد فطن إلى أبعد النتائج التى عساها أن تجر إليها تلك السياسة . لذلك لم يتقهقر أمامها ، كما لم يتردد فى أن يأمر المسلمين بالجلاء عن بلاد ما وراء النهر[2] . بيد أنه يظهر لنا أن الجند لم يهتموا بأمر ذلك الجلاء ، كما كان طبيعيًا أن يبادر الخلفاء بعد موت عمر بفرض ضرائب أكثر فداحة لسد ذلك النقص الذى جرّته سياسته . يدل على ذلك مارواه الطبرى[3] عن هجرة الكثيرين من السُّغد من بلاد ماوراء النهر فى عهد من وليها بعد

(١) الطبرى ٢ : ١٣٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٣٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٤١٨ ، ١٤٣٩ وما يليها .

الجراح . وقد اشتعلت نار الحرب منذ ذلك الحين فى تلك البلاد ، ولم يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع والحصون بعد أن أجلوا السُّغد ، الذين طلبوا مساعدة الأتراك لهم ، عن سواد بلاد ما وراء النهر .

وأما المحاولة الثانية لتحسين حال أولئك الموالى فكانت بعد سبع سنين ، وذلك فى خلافة هشام بن عبد الملك . وكان أول من فكّر فيها هو أشرس الملقب بالكامل والى تلك البلاد ، ليضع حداً لتلك الحرب التى خربت المدن الجميلة الواقعة على الشاطىء المقابل لنهر سيحون . وإنا لمدينون للطبرى (٢ : ١٥٠٧ وما يليها) بما رواه لنا عن سياسة ذلك الأمير . فقد قال أشرس يوماً لمن حوله : « إبغونى رجلا له ورع وفضل أوجهه إلى ما وراء النهر فيدعوهم إلى الإسلام » ، فأشاروا عليه بأبى الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبة . ولما كان هذا لا يعرف الفارسية ألحق به الربيع بن عمران التميمى مترجماً له . وقد شخص أبو الصيداء إلى سمرقند ، حين أذن له أشرس برفع الجزية عمن أسلم ثم طلب من أصحابه أن يعينوه إذا ما أبى جباة الخراج العمل وفق سياسة الوالى الجديدة .

وكان يقيم غَوْزك أمير السُّغد فى سمرقند ومعه عامل الخراج حسن ابن أبى العمرطة ، وكان هذا رجلا نزيهاً يخالف الكثيرين من مواطنيه فى نظرتهم إلى الفتوحات الإسلامية ، كما كان لا يداجى نفسه فى أن هذا الفتح لم يكن (فى حقيقة الأمر) إلا تعدياً ليس للدين فيه سوى نصيب ضئيل جداً[1] .

(١) وهذا ما استنتجه من جوابه حين بلغه أن سبعة آلاف من الأتراك ستحل بهم الهزيمة عما قريب فقال : « ما أتونا بل أتيناهم وغلبناهم على بلادهم واستعبدناهم » (الطبرى ٢ : ١٤٨٥) . وسنرى بعد قليل أنه لم يكن هو وحده الذى كان يفكر على هذا النحو .

وقد بلغت جهود أبى الصيداء صالح بن طريف فى بادئ الأمر ما كانت ترجوه من النجاح بمعاونة ذلك العامل . فقد زاد اعتناق الناس للإسلام ، وبنيت المساجد على أثر دخولهم فى هذا الدين أفواجاً . بيد أن هذا النجاح قد ضايق الأمير غوزك الذى كان يرى فى ذلك نقصاً فى دخله هو من ناحية ثم فى دخل الحكومة من ناحية أخرى . وقد أفضى بشىء من مخاوفه إلى أشرس ، فكتب هذا إلى عامل الخراج : « إن فى الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغنى أن أهل السُّغد وأشباههم لم يسلموا رغبة ، وإنما دخلوا فى الإسلام تعوذاً من الجزية . فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه » . وبذلك فشلت تلك الحركة التى قام بها ذلك الوالى أمام ما أقامه فى سبيلها الأمير غوزك من العقبات وما أدلى به من الحجج على فسادها وما تجره على بيت المال من الخراب . ومن ثم عزل ابن أبى العمرطة وولى مكانه هانئ ابن هانئ ، ثم عين الأشحيذ الفارسى مساعداً له .

وكان الغرض من تعيين هذين الرجلين إنما هو القضاء على ما قام به أبو الصيداء من ضروب الإصلاح . وعلى ذلك لم يُجد احتجاج من أسلم من دهاقين بخارى وقولهم لأشرس « ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا ؟ » ، كما لم يغن احتجاج أبى الصيداء شيئاً . فقد كتب أشرس إلى هانئ ثم إلى العمال « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » . لهذا أخذت روح الفتنة تدب فى نفوس أولئك الجدد فى الإسلام بعد أن خابت آمالهم ، يعضدهم النابهون من الجند والفقهاء عرباً وموالى . وقد أرسلت الحكومة أحد القواد فقبض على زعماء تلك الفتنة . وهكذا لم يلبث أن أعقب إعفاء المحدثين من الجزية حركة عكسية وسياسة خراجية غاية فى الشدة . ولا غرو فقد أصبحت تجبى منهم بالقوة دون أن يراعى فى ذلك حتى جانب الضعفاء منهم . ومن

اليسير علينا أن نستخلص مما رواه الطبرى (٢ : ١٥٠٨ س ١ – ١٢) أن حركة أشرس لم تقتصر على السُّغد ، بل إن نتائجها قد ظهرت أيضاً فى بخارى . وإلى القارئ ما رواه النرشخى (Schefer, Chrestomathie persane) ج ١ ص ٤٢ وما يليها ، ص ٥٨ : « ثار أحد أهالى بخارى فى عهد ولاية أسد ابن عبد الله على خراسان[1] وحث الناس على الدخول فى الإسلام . وكان السواد الأعظم من الأهلين لا يزال على الكفر ؛ ومن ثم كانوا يدفعون جزية الرءوس . وقد أحفظ بخاراخودة تغشادة اقتناع الكثيرين منهم بصحة الإسلام واعتناقهم له . ولا غرو فقد كان لا يزال يبطن الكفر رغم إظهاره الإسلام ، فكتب إلى أسد بن عبد الله أن ببخارى رجلًا يعكر صفو الأمن ويلقى بذور الفتنة ويشق عصا الطاعة ، وأن أتباعه يزعمون أنهم مسلمون وليسوا بمسلمين ،

(١) إذا فإن المؤرخ لا يوافقنا فى رأينا ، إذ تذكر أن الحوادث التى عرضنا لذكرها هنا قد وقعت فى إمارة أشرس . فقد ولى أسد بن عبد الله بلاد خراسان مرتين : الأولى من سنة ١٠٦ ﻫ إلى سنة ١٠٩ ﻫ والثانية من سنة ١١٧ ﻫ إلى سنة ١٢٠ ﻫ . وقد حل محله أشرس سنة ١٠٩ ﻫ . وليس بعيداً فى رأيى أنه عزى إليه ما حدث فى عهد من خلفه . ولم يعرض الطبرى لذكر تلك المحاولة التى كان يراد بها تحويل بلاد ما وراء النهر إلى الإسلام فى إمارة أسد . وأما الأخبار التى نقلها النرشخى فى مختصره الذى بين أيدينا فإنه يغلب عليها الخطأ سواء فيما يتعلق بالأسماء أو التواريخ . وهناك مثالين (ص ١٦) : « فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى فى عهد معاوية (وصحتها الوليد الأول . وقد أقر قتيبة تغشادة « بخاراً خودة » تلك المدينة فى مركزه ثم أمر أبو مسلم بقتله بمدينة سمرقند فى عهد نصر بن سيار والى خراسان ، وذلك بعد وفاة قتيبة بسنتين بعد أن ظل فى الحكم زهاء اثنتين وثلاثين سنة » . وعندئذ تكون وفاة قتيبة سنة ٩٦ ﻫ بينما لم يظهر نفوذ أبى مسلم إلا فى سنة ١٣٦ ﻫ . وإما سنة وفاة وفاة تغشادة بالضبط فهى سنة ١٢١ ﻫ (ص ٤٣) . « وفى سنة ست وخمسين ومائة (٧٧٢ م) مات أسد بن عبد الله بن مروان » . ومات أسد سنة ١٢١ ﻫ وكان جده يزيد .

فإنهم لم يسلموا إلا بألسنتهم ، إذ لا تزال عقائدهم القديمة متأصلة فى نفوسهم . وإنما اتخذوا هذا ذريعة لإثارة الفتن فى المدينة وإقلاق بال الحكومة وإنضاب بيت المال » . وكان من أثر ذلك أن كتب أسد بن عبد الله إلى نائبه مقاتل شريك بن الحارث (؟) يأمره بالقبض على هؤلاء القوم ثم تقديمهم إلى تغشادة ليرى فيهم رأيه . وقد ذكر المؤرخون أن هؤلاء الجدد فى الإسلام لجأوا إلى المسجد الجامع يشهدون بأعلى أصواتهم أنه « لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله »[1] . وقد شنق بخاراخودة منهم أربعمائة دون أن يجرؤ أحد على أن يشفع لهم ، ثم استرق من بقى منهم وأرسلهم إلى أسد بن عبد الله بخراسان . على أن أحداً من هؤلاء ممن فروا من الموت لم يرتد عن الإسلام ، بل ظلوا جميعًا مؤمنين به[2] ، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلى بخارى بعد موت تغشادة .

وقد جاء ما ذكره النرشخى فى الوقت المناسب ، فقد صحح رواية الطبرى ومحصها . ومن ثم أصبح ذا قيمة تاريخية كبيرة . ولا شك فى أن ما أمدنا به النرشخى لم يكن مصدره سوى تلك المعلومات الموجزة التى رواها لنا مؤرخو العرب . فإذا كان مؤرخ بخارى (النرشخى) قد نقل لنا شيئاً عن إدارة الأمويين ، فإنما روى لنا تلك الحوادث كما تلقاها من أفواه أولئك الجدد فى الإسلام أنفسهم وحفظها عنهم . ومما راعنى أيضاً عند قراءة ما رواه هذا

(١) أنظر كتاب الأنساب للبلاذرى (طبعة أهلوردت) ص ٣٣٦ وما يليها . وحمزة الأصفهانى (طبعة Gottwaldt) ص ٢٠٨ .

(٢) وكل ما هنالك هو أن أسداً منحهم الحرية . انظر الطبرى ٢ : ١١٦١ حيث نقرأ [سنة ١١٩ ﻫ] « فبعث أسد بجوارى الترك إلى دهاقين خراسان واستنقذ من كان فى أيديهم من المسلمين » . وهذا الذى ذكر قد يظل غير واضح إذ لم يذكر لنا النرشخى ما كان يمضى ببخارى فى ذلك الحين .

المؤرخ تأييده ما ذهبنا إليه من أن سياسة عمر بن عبد العزيز وأشرس ، إنما كانت تضر بمصلحة أشراف البلاد وتعرضها للخطر بقدر ما كانت تضر ببيت المال . وإنَّ فشل هذه السياسة التى كانت ترمى إلى إصلاح حال الموالى وتسويتهم بالعرب ، إنما يرجع بادئ ذى بدء إلى تلك العراقيل والعقبات التى وضعها فى سبيلها هؤلاء الأشراف . وعلى ذلك فإنا نخالف ذلك المؤرخ فيما ذهب إليه من أن الكراهة الدينية هى التى حدت بتغشادة أن يقف من هؤلاء الجدد فى الإسلام ذلك الموقف العدائى . فكل ما بأيدينا من الشواهد إنما ينم عن استبداد ذلك الأمير الذى كان — رغم اعتناقه الإسلام — يرى أن تحول رعيته إلى هذا الدين سوف يحرمه من تلك الوسيلة الفذة لاستنزاف أموالهم . على أن هناك أمراً آخر هو أدهى من ذلك وأنكى ، ذلك ما رواه لنا هذا المؤرخ ومن سبقه من المؤرخين من انضمام كبار الموظفين من العرب إلى ذلك الأمير ، على الرغم مما كان فى ذلك من التضحية بالدعوة إلى الإسلام والوقوف فى سبيل نشره .

ومن ثم كان من البديهى أن تقوم العقبات الكؤود فى خراسان ، وكذا فى بلاد العراق فى سبيل سياسة عمر . ومن أجل ذلك فإنى لا أزال أكرر هذا السؤال : ما هو الداعى إلى هذا الاستبداد المحزن ؟ لا بد أن يكون الغرض منه إنما هو توطيد احتلال قد أصبح لا مبرر لوجوده ، ولا سيما بعد أن تحول أهالى تلك البلاد المحتلة إلى الإسلام . ومما لا ريب فيه أن ذلك لم يكن رأى الأغلبية من العرب فى صدر الإسلام . فهؤلاء — كما نعلم — كانوا يدينون بتلك العقيدة ، وهى أن ما يغنمونه من البلاد التى يفتحونها ، إنما هو ثمرة مشروعة لدفاعهم عن الإسلام دون أن يفطنوا لما قد تنتهى إليه تلك العقيدة من التعارض بينها وبين الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشره . ومن ثم لا ندهش إذا شاهدنا فى الولايات الشرقية للدولة الإسلامية قيام حركة شعارها تأويل أحكام الشريعة

وتفسيرها تفسيراً أقل حرجًا وضيقاً ، تلك الحركة التى كان المقصود منها مناوأة العرب والأمويين جميعًا ، والتى لم يرد الفاتحون من العرب والأمويين بوجه خاص أن يذعنوا لما كانت تدعو إليه من المطالب العادلة وما كانت تنشده من ضروب الإصلاح .

— ٦ —

سياسة عمر بن عبد العزيز
نحو الموالى وأثرها

تحدثنا بعض المصادر الموثوق بها أن الموالى الذين طردهم الحجاج (أنظر ص ١٧ ، ص ٤١ — ٤٢ من الترجمة) من البصرة والبلاد المجاورة لها اجتمعوا فى بعض المعسكرات نادبين حظهم قائلين وامحمداً وأحمد ! ولا غرو فقد كانوا لا يعلمون أين يذهبون . ومن ثم نرى أهل البصرة ينتحلون المعاذير ليلحقوا بهؤلاء الموالى ويشتركوا معهم فى نعى ما نزل بهم من حيف وظلم[١] . كما يروى لنا مصدر آخر[٢] أن هؤلاء الرجال من أهل البصرة كانوا من القراء أعنى من المشتغلين بدراسة التوحيد . وقد اشتركوا اشتراكاً فعلياً فى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وأذكوا حماس مواطنيهم بتلك الخطب الحماسية حاملين إياهم على مقاومة بنى أمية وحكمهم مقاومة جدية . وإلى القارئ ما ذكره الطبرى فى ذلك[٣] : « فوالله ما أعلم قوماً على بسط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم فى الحكم . فليكن لهم البدار . قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم

---

(١) البلاذرى : كتاب الأنساب ص ٣٣٦ وما يليها .

(٢) الطبرى ٢ : ١١٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ .

نقل المؤلف هذه العبارة عن الطبرى ٢ : ١٠٨٦ ، ١١٦٠ (١٤) ، والواقع أنها وردت فى صفحتى ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ — المترجمان .

بنية ويقين ، وعلى آثامهم قاتلوهم على جورهم فى الحكم وتجبرهم فى الدين » . فتلك العبارات الثورية تبين لنا جليا أن أولئك القراء كانوا أنفسهم من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام والذين جعلتهم مناصبهم بمعزل عن أن يشاركوا مواطنيهم حظهم العاثر . ومهما يكن من الأمر فإننا نرى أن هؤلاء المضطهدين كانوا يعتمدون بمض الاعتماد على عطف تلك الطائفة المحترمة حتى عند أفراد الطبقة الحاكمة نفسها .

ولم يكن أولئك القراء وحدهم هم الذين كانوا يبغضون النظام الأموى . ففى شمال العراق خرج أحد الأشراف على بنى أمية ، وهو مطرّف بن المغيرة ابن شُعبة الذى ثار فى شمال العراق يدعو إلى « الحكم بالحق والعدل فى السيرة »[1] . ويجد القارىء تاريخ هذه الثورة فى كتاب الأستاذ فايل (Weil .Geschichte der Khalifen, vol. I. p. 422) . ولم يكد يحن الوقت الذى تؤتى فيه هذه الحركة أكلها حتى ذهب مطرف ضحية لها . وعلى الرغم من فشل تلك الحركة الاصلاحية فإن الرغبة فى تحقيق ما كانت ترمى إليه من الاصلاح كانت لا تزال تحفز الناس على معاودتها من حين إلى آخر . ولا غرو فقد صادفت تلك الحركة نجاحاً كبيراً على يد عمر بن عبد العزيز .

وقد أجحف مؤرخو الغرب فى الحكم على هذه الاصلاحات التى قام بها ذلك الخليفة ، والتى كان الغرض منها القضاء على ما قام فى سبيل انتشار الإسلام من العقبات ، وذلك بمنحه الموالى الحقوق التى كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم وإعفائهم من الجزية التى كان يدفعها الكفار ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين نصيبهم من الاعطيات السنوية[2] .

(١) الطبرى ٢ : ٩٨ الحكم بالحق والعدل فى السيرة .

(٢) Von Kremer, Cultrgeschte, vol. I. p. 171 suiv., Miiller, Der Islam, vol. I, p, 438 suiv.

ولا ريب فى أن سياسة ذلك الخليفة لم توقظ إلا آمالاً لم تستطع الحكومة تحقيقها . فقد كانت الحال تتطلب علاجاً آخر غير تلك السياسة التى سار عليها عمر بن الخطاب . ففى العراق أنضبت الأعيات السنوية بيت المال بعد أن تأثرت موارده تأثرا محسوساً من جراء إلغاء الجزية فى خراسان . وهكذا أعقبت تلك الفوضى فى الشئون المالية بعد موت عمر بن عبد العزيز سياسة خراجية أقصى ما تكون جوراً وعسفاً .

وعلى الرغم من ذلك فينبغى أن يتورع المؤرخ عن القسوة فى الحكم على تلك الإصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز . ومن العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف ضد ذلك الخليفة المصلح بالإجابة عن هذين السؤالين : (١) ألم يكن خيراً للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر فى الحقوق ، تلك السياسية التى لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول فى سقوط دولتهم ؟ (٢) وإذا لم تكن تلك المساواة فى مصلحة الخلفاء من بنى أمية ، ألم تكن من مصلحة الإسلام نفسه ؟ ليس ثمة أحد كائنا من كان يستطيع أن يشك فى صحة هذه الملاحظة الثانية . فقد انتهى النظام العسكرى الذى وضعه عمر بن الخطاب قبل أن يرتقى عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة . وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بنى أمية إلى إن وقت التفرغ للاصلاحات الداخلية قد آن ، كما اقتنع بذلك عمر بن الخطاب من قبل . ومن ثم كان يحول جهده دون القيام بفتوحات جديدة[1] . ولم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذى سنَّه عمر بن الخطاب الذى كان يقتفى أثره لما كان يكنه له فى أعماق

(١) انظر ص ٢٢ (ص ٥١ من الترجمة) .

نفسه من الاحترام والاكبار والذى لم يكن إلا صورة صادقة منه رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاماً . فقد كان لزماً أن تجد الحكومة أعمالا جديدة ، غير الغزو والفتح ، للمرابطين فى الولايات الإسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عالة على بيت المال ، ولا غرو فقد كانت السياسة التى سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند للأرض ، بينما كانت الحالة تقضى بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها ، كما كانت تسخو فى منح الأعطيات حتى للموالى من المسلمين فى الوقت الذى كانت تتطلب فيه مالية البلاد إلغاء تلك الاعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم . وهكذا حال ذلك التصرف الذى أنضب موارد الدولة وجر الخراب على بيت المال دون نجاح تلك السياسة التى كانت ترمى فى ذاتها إلى الإصلاح ، وإعفاء الجدد فى الإسلام من الجزية . ومن ثم نرى أن سياسة عمر بن عبد العزيز كانت أبعد أثراً فى وهن العرش الأموى من سياسة الحجاج بن يوسف وسوء إدارته ؛ فإن الآمال التى أثيرت فى النفوس لم تنطفىء جذوتها حتى أصبحت الشعوب العرب من غير العرب تنتظر خلاصها من حكم بنى أمية ، بعد أن غدت تلك السياسة الخراجية الظالمة فى نظرهم عبئاً ثقيلاً لا قِبل لهم باحتماله ، تلك السياسة التى فاجأهم بها الأمويون ولا سيما فى خلافة هشام بن عبد الملك(١) على أثر فشل ذلك الاصلاح الذى قام به عمر بن عبد العزيز .

— ٧ —

ثورة الحارث بن سُريج

يهمنا الآن أن نتتبع تلك الحركة الاصلاحية فى خراسان أكثر من غيرها فى الولايات الإسلامية ، تلك الحركة التى دفع الأهلين إلى القيام بها

(١) أنظر اليعقوبى ج ٢ ص ٣٧٦ لاستقصاء ما كتبة عن العراق .

ظلم بنى أمية وسوء إدارتهم . فمن هذه البلاد خرجت تلك الصيحة التى قلبت دولتهم . ونستطيع أن نتبين مما رواه لنا المؤرخون مدى انتشار ذلك الحزب المتذمر فى خراسان أكثر منه فى غيرها من الولايات الإسلامية . وقد بينا قبل (ص ٢٣ وص ٥٢ — ٥٣ من الترجمة) أن خضوع السُّغد لذلك النظام الجديد للضرائب لم يتم دون أن يقوم فى وجهه ويحول دون تطبيقه بعض الرجال من ذوى النفوذ والشأن . وكان على رأس تلك الحركة زعيمان من الموالى هما أبو الصَّيداء وثابت قطنة(١) . أما ثابت فكان ذائع الصيت محبوباً من الشعب فى خراسان ، كما كان شاعراً مُفلقاً ، حفظ لنا كتاب الأغانى بعض قصائده (ج ١٣ ص ٤٩ ـ ٦٤) . وقد انتصر انتصاراً مؤزراً فى الحروب التى دارت رحاها بين المسلمين والأتراك فى بلاد ما وراء النهر(٢) ، وأبلى بلاء حسنًا فى جهاد الكفار حتى لقى حتفه فى ساحة القتال . وأما قطنة فكان من خلصاء يزيد بن المهلب اليمنى المشهور . وقد أسند إليه ذلك الوالى بعض المناصب الهامة(٣) ؛ ولهذا كان لا يتحرج العرب عن اعتباره مساوياً لهم فى السؤدد والشرف ، ويهمنا إلى حد بعيد جداً أن نعرف الشىء الكثير عن أخلاق هذا الرجل وميزاته . وقد أمر والى سمرقند بحبسه هو وأبى الصّيداء ليتفرغ للسُّغد ويتمكن من قمع ثورتهم . ويظهر أن سياسة ذلك الوالى قد أثمرت الثمرة المرجوة ونجحت النجاح المطلوب . على أن هناك أمراً آخر هو أهم من هذا ؛ فقد شغل غزو الأتراك بلاد ما وراء النهر بال الحكومة زمنًا ، ووحّد للمرة الثانية بين أولئك المتذمرين وبين الحكومة لدفع ذلك الخطر المشترك ،

(١) الطبرى ٢ : ١٥٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٥١٤ وما يليها .

(٣) الأغانى ج ١٣ ص ٤٩ .

ذلك الغزو الذى كان نتيجة لسوء المعاملة التى لقيها أهل هـذه البلاد[1] من ناحية العرب .

وقد اشتهر فى تلك الحروب رجل من تميم يدعى الحارث بن سريج بن ورد ابن سفيان ابن مجاشى[2] ، أخذ على عاتقه إتمام تلك الحركة التى قام بها ثابت وأبو الصيداء ومواصلة الثورة على بنى أمية . وكان الحارث مسلما ورعًا زاهداً مصلحًا ، طالما حارب الأتراك فى صفوف المسلمين ، ثم المسلمين فى صفوف الأتراك ، أو بالأحرى حارب الحكومة احتجاجًا على ما كانت تثقل به كاهل الأهلين من الضرائب . وكان يزعم أنه المهـدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين . لذلك أشعل نار الثورة على بنى أمية لتحرير أولئك المستعبدين ورفع ذلك النير عنهم . هذا هو الحارث ابن سريج ـ ذلك الرجل الغريب الأطوار بلا ريب ـ الذى كشفت أعماله عن كثير من خبايا تلك الحركة الخراسانية ، وحلت ما كان فيها من أحاج وألغاز . وإلى القارئ شيئًا عن سيرة ذلك المصلح[3] . اشترك الحارث اشتراكًا جديًّا فى محاربة الأتراك فى عهد أشرس كما تقدم ، ثم غير خطته بعد ست سنوات تعاقب فيها على ولاية خراسان بعد أشرس الجنيد ، ثم عاصم بن عبد الله . ومن ثم نراه يخرج على بنى أمية ويسير نحو حاضرة الخلافة من تلك البلدة الصغيرة « النخذ » × .

(١) الطبرى ٢ : ١٥١٠ . قد ارتد السغد وأهل بخارى عن الإسلام وطلبوا العون من الترك .

(٢) الطبرى ٢ : ١٥١٣ . لم يذكر الطبرى إلا هذين الإسمين : حارث بن سريج . وقد ورد هذا الإسم فى مخطوط رقم ٣٣٢(Warner) ص ٣٩٠ .

(٣) وهذه الحـــوادث التى عرضنا لبحثها قد وردت بـكتابى Opkomst der Abbasiden ص ٥١ وما يليها .

× النخذ أو أندخوذ (الطبرى ٢:١٥٦٦) لا نخوذ كما ذكر المؤلف . المترجمان .

وأما أنصاره فكانوا من العرب (وينتمون إلى حزبين متنافرين من مضر واليمن) ثم من الفرس (الدهاقين) . وكان كل ما يرمى إليه الحارث هو الرجوع إلى القرآن والسنة ، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية[1] . وسرعان ما استولى الحارث على المدن الواقعة على شواطىء نهر سيحون (Oxus) . بيد أن الحاضرة استطاعت أن تصد غاراته . وقد قضت تولية أسد بن عبد الله القسرى إمرة هذه البلاد بعد عاصم ووصوله إليها ـ فى جند لم تنهك قواها الحرب ـ على تلك المفاوضات التى أوشكت أن تنتهى بإبرام معاهدة بين عاصم وبين الحارث الذى اضطر أمام هؤلاء الجند إلى التخلى عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨ هـ) . ومنـذ ذلك الحين انضم الحارث إلى الأتراك ضد العرب . وفى سنة ١٢٠ هـ ولّى هشام (ابن عبد الملك) نصر بن سيار بلاد خراسان . وكان نصر أكثر الموالين للعرش الأموى كفاءة ؛ وبذلك استطاع أن يوطد دعائم السلم فى بلاد ما وراء النهر (١٢٣ هـ) ، كما تمكن فى الوقت نفسه من حمل الخليفة على العفو عن الحارث سُرَيج (١٢٦ هـ) . بيد أن الحرب التى اشتعلت نارها بين القبائل العربية فى سورية قد اجتاحت الأقاليم والولايات الإسلامية بعد موت الوليد الثانى ، وبخاصة فى مرو حاضرة خراسان حيث خرجت اليمانية على نصر .

(١) وأرى أنه يجب أن تـكمل هذه العبارة بتقدير هذه الـكلمة « من آل النبى » . وعلى ذلك تـكون العبارة : وانتخاب حكومة من آل النبي ترضى عنها الأغلبية . أنظر ما كتبه كترمير فى مجلة الجمعية الأسيوية الفرنسية ، اكتوبر ١٨٣٥ ص ٣٢٧ (Quatremère, Journal Asiatiqne, Oet. 1835, p. 327) وقد اخترت التفسير الذى ذكرته بعد مقارنته بعبارة « من رضى الناس (المسلمون) بتوليته » وعبارة « من يرضون لأنفسهم على مثل الحال التى هم فيها » . الطبرى ٢ : ٤٩٩ (١٥) ٩٨٤ (١٦) ، ٤٨٨ .

وبذلك استطاع الحارث الذى ظل على تمرده وسخطه على الأمويين أن يطرد نصراً من حاضرة خراسان بمعونة هؤلاء اليمانية . بيد أن الشقاق لم يلبث أن عكّر صفو ذلك الحلف بين هذين الفريقين بسبب ما كان بينهما من المصالح المتعارضة تمام التعارض . فأعلن اليمانيون الحرب على الحارث ومن معه ، تلك الحرب التى لم تضع أوزارها بين الفريقين إلا بعد موته سنة ١٢٨ هـ[1] .

ومن اليسير أن نستخلص مما تقدم أن هذه الثورة لم تكن إلا تتمة لتلك الحركة . ولا غرو فقد لعب كلٌّ من بشر بن جُرمز وقاسم الشيبانى من أنصار الحارث دورًا هامًّا فى تلك الفتنة التى أثارها السُّغد[2] ، كما كان السواد الأعظم ممن اشتركوا فى تلك الثورات من الدهاقين من صغار الملاك الذين كان يضطهدهم أمراء الولايات وعمال الخراج (انظر ص ٢٠ من الكتاب ، ص ٤٨ من الترجمة). يضاف إلى ذلك هذا الفريق من أتباع الحارث من سكان القرى الذين أتوا مدينة ترمذ ، ووقفوا على أبوابها يئنون من ظلم بنى مروان (من الأمويين)[3] وعسفهم . وكانت أولى مطالبهم اختيار عمال اشتهروا بالعفة والعدل . ويظهر لنا مما رواه الطبرى (٢ : ١٩١٨ وما يليها) أن الحكومة قد اضطرت أخيراً إلى النزول على إرادة هؤلاء وقبول مطالبهم . فكان يُعين مندوبان ، أحدهما من قبل الحكومة والآخر من قبل الشعب ، يوكل إليهما اختيار العمال وحثهم

(١) وقد ورد اسم الحارث فى المؤلفات الصينية تحت اسم Hu—lo—Chan de Mu—lu ، أى حارث المروى (نسبة إلى مرو وحاضرة خراسان) . انظر كتاب Bretschneider ص ٩ فيما يتعلق بما كتبه الصينيون عن العرب والولايات العربية . وأنا مدين بما نقلته هنا للمسيو دى غوية .

(٢) الطبرى ٢ : ١٨٦٨ . راجع أيضاً ٢ : ١٥٠٨ .

(٣) الطبرى ٢ : ١٥٨٣ .

على معاملة دافعى الضرائب باللين والرفق . ويظهر أن تلك الإمتيازات لم يكن لها من أثر فى نفوس الأهلين ؛ فإن التذمر ما فتىء يملأ قلوبهم حتى إن كثيراً من حاشية الوالى نفسه قد اتهموا بمالأة هؤلاء المتذمرين[1] .

ومما يكشف لنا عن ميول الحارث وميول أنصاره تسميتهم بهذا الاسم الذى طالما عرفوا به وهو المرجئة[2] .

وتخالف المرجئة الخوارج فى تكفيرهم الخلفاء الثلاثة ، عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر وأن ذلك موكول لله وحده يوم القيامة مهما كانت الذنوب التى اقترفها والمبادىء السياسية التى يدين بها . فهم يرجئون (القرآن الكريم ٩ : ١٠٦) الحكم على إخوانهم فى الدين إلى الله وحده[3] (الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

وكانت مسألة المسائل فى ذلك الحين هى موقف الجدد فى الإسلام . وقد لعبت المرجئة دورا هاما فى التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف وحلت تلك المشكلة الإجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة . وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وعلى هذا كانوا لا يتحرجون

(١) الطبرى ٢ : ١٩٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٥٧٥ .

(٣) انظر مقالتى فى «الارجاء» فى المجلة الألمانية مجلد ٤٠ ص ١٦١ وما يليها .

عن قتال أية حكومة تقر مثل تلك المظالم[١] . ومن ثم لا ندهش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعسف فى بلاد ما وراء النهر أن نرى هؤلاء يحرمون سفك الدماء البريئة ويجهرون بأن جميع المسلمين إخوة فى الدين[٢] . وصفوة القول أن كل ما كان ينشده هؤلاء إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذى أقره الإسلام وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

كان ذلك بلا ريب شعور السواد الأعظم من أتباع الحارث . على أن بعضهم قد ذهب إلى أبعد من هذا ، فضمَّنوا عقيدة التوحيد معنى أخلاقياً ودينياً عميقاً ، تلك العقيدة التى يجب أن تظل — حسب زعمهم — إعترافاً قلبياً وعقيدة باطنية . وقد عُزى إلى جهم بن صفوان أحد رءوس المرجئة وكاتم السر للحارث بن سريج[٣] هذه الكلمات : « إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية[٤] (فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ولى لله عز وجل ومن أهل الجنة) . وعلى ذلك فقد ذهب جهم إلى القول بأن الإسلام الصحيح والايمان الحق شىء واحد . وكان من الطبعى أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها إلى احتقار الفرائض العملية

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٣ ، ٥٥ ، المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٤٩ (أنظر جهم بن صفوان) . ونرى فى العراق بعض المرجئة يحاربون فى صفوف يزيد بن المهلب الذى ثار على بنى أمية . الطبرى ٢ : ١٣٤٩ .

(٢) الطبرى ٢ : ١٩٣١ وما يليها ، الأغانى ج ١٣ س ٥٢ (١٩) .

(٣) الطبرى ٢ : ١٩١٨ ما يليها ، ١٩٢٤ .

(٤) ابن حزم : مخطوط ليدن ج ٢ ورقة ١ (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ ج ٤ ص ٤ ٢) — المترجم .

للإسلام[١] ، ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التى جاء بها القرآن عل الوجه الأكمل . ومن هذه الناحية كان مذهب الإرجاء فى خراسان أشبه شىء بأثر عكسى أخلاقى لذلك الإسلام الشكلى دين الحكومة العربية فى ذلك الحين — تلك الحكومة التى أصرت على عدم المساواة بين جميع رعاياها فى الدين باتباعها ذلك النظام الجائر لجمع الضرائب وجباية المكوس ×× .

وأما ما ينكره البعض على الحارث من محالفته الأتراك ضد المسلمين فإنى أميل إلى القول بأن ذلك كان راجعاً إلى عوامل أخرى دون حنقه على العرب وسخطه عليهم لهزيمتهم إياه . وأما الجدد فى الإسلام من إقليمى بخارى وسمرقند ، وإن كانوا قد انصرفوا عن العرب (الأمويين) وخرجوا عليهم ، فليس معنى هذا أنهم قد ارتدوا عن الإسلام . يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخون عن وجود قاض مسلم بين أولئك الذين عادوا من منفاهم مع الحارث[٢] ، مما يدلنا على أنه قد انضم إلى الأتراك الكثيرون من المسلمين غير الحارث ، وهم من غير شك من أولئك المحدثين فى الإسلام من أهالى بلاد ما وراء النهر وكانوا يرمون بمساعدة الحارث بن سرَيج إلى استرداد حقوقهم السياسية ومساواتهم بالمسلمين من العرب .

---

(١) Zeitschrift d. D. M. G. 11. p. 170

×× لئن صح هذا فإن الدولة الأموية باتباعها هذا النظام قد بعدت البعد كله عما دعا إليه الإسلام من المساواة بين جميع المسلمين فى جميع الحقوق السياسية والمدنية ، لا فرق فى ذلك بين عربى وعجمى . يؤيد ذلك قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) سورة الحجرات آية ١٠ ، وقوله تعالى (وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات آية ١٣ — المترجمان

(٢) الطبرى ٢ : ١٨٦٨ .

ويجمل بنا قبل أن نمضى فى هذا البحث أن نلقى نظرة ولو سطحية على ما أسلفنا من البحوث حتى لا تنفصم عرى ما لدينا من البراهين والحجج بين تلك الحوادث المعقدة التى أتينا على ذكرها .

لقد صورنا للقارىء — اعتماداً على ما وقفنا عليه من المعلومات — الحالة السياسية والاجتماعية لتلك الشعوب المحكومة فى عهد الاحتلال العربى وما تلا ذلك من الاضطراب ، كما رأينا كيف أصبح الأمويون بتحمسهم فى الدفاع عن ذلك النظام من أشد الناس خطراً على الدعوة الإسلامية .

وقد استطعنا بفضل ماهدانا إليه بحثنا أن نقف على أغراض تلك الحركة العكسية التى قامت فى الولايات الشرقية للدولة الإسلامية من جراء اضطهاد بنى أمية لأولئك الموالى ، تلك الحركة التى لم تلبث أن تطورت إلى حركة دينية ترمى إلى إسلام أوسع نطاقا وأكثر عالمية وأقل حرجا مما كان يفهمه الأمويون تدل على مدى عالميته تلك العبارة : « إن الإسلام لا يعرف المفاضلة بين الشعوب » .

ولم تخمد تلك الحركة بموت الحارث بن سريج (١٢٨ هـ) . فانه لم يكد يمضى على وفاته عام واحد حتى أشعل أبو مسلم نار الثورة على بنى أمية ، تلك الثورة التى قلبت عرشهم كما انتهت بزوال النفوذ العربى فى القسم الشرقى للدولة العربية .

ومن هنا نرى أن نجاح أبى مسلم لم يكن ابن ساعته : وإنما يرجع إلى دخول عنصر جديد من المطامع القومية فى نفوس المسلمين من غير العرب ؛ ذلك العنصر هو الشيعة .

ومن ثم لم يبق أمامنا إلا أن نعنى بدراسة نمو هذه الأفكار الشيعية وانتشارها .

الباب الثانى

الشيعة

— ١ —

نشأة الفرق الإسلامية

لا بد للمؤرخ الذى يريد أن يقف على مدى انتشار المذاهب الإسلامية وتطورها أن يحصر بحثه فى عصر عربى خاص .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الطوائف التى نشأت بين العرب فى البلاد التى فتحوها إنما كانت ترمى بادىء ذى بدء إلى غرض سياسى محض رغم ظهورها بهذا المظهر الدينى :

كانت الإمامة (وهى القيادة العليا للمسلمين) أولى المسائل التى فرقت بين المسلمين ومزقتهم شيعاً وأحزابا . أما حزب بنى أمية (ومقره بلاد الشام) الذى كان له النفوذ فى ذلك الحين فكان يدافع عن عرش الأمويين ، إذ كان يرى أن أمراء هذا البيت أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبى بكر وعمر عثمان) ، وأنهم أصحاب الحق فى الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه لما كانت تربطهم به من أواصر القرابة . وكان يناوىء هذا الحزب :

١ — حزب أهل المدينة وهم أنصار النبى ، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب يعتبرون أن وصول بنى أمية إلى الحكم إنما هو انتصار لأعدائهم القدامى من مشركى مكة .

٢ — حزب الشيعة وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ، ولا سيا حق علىّ .

٣ — حزب الخوارج وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء أنى كانت الطبقة التى ينتمون إليها ، كما كانوا يرون أيضاً عزل الخليفة منذ اللحظة التى يفقد فيها ثقة الأغلبية .

وكان الخوارج أشد هذه الأحزاب الأربعة تعصباً . وأما الأحزاب الأخرى ،فإنه على الرغم من أن الحرب كانت لاتكاد تضع أوزارها بينهم ، فقد كان يجمعها مبدأ مشترك هو انتخاب الخليفة من قبيلة قريش . وهم وإن كانوا يعتبرون خصومهم كفارا ، فإن ذلك لم يمنعهم من أن يعيشوا معهم فى وئام تام ما دام فى استطاعة الحكومة أن تتغلب وتبسط نفوذها بالجند أو بالمال (١) . وأما الخوارج فكانوا على العكس من ذلك لا يذعنون لهذا النوع من نظم الحكم ، كما كانوا يرمون أعداءهم السياسيين بالكفر ويعاملونهم معاملة الكفار . وكان شعارهم « لاحكم إلا لله » ، تلك العبارة التى لم يكن يقصد بها إلا حكم السيف .

لايضع المؤرخون الذين تأثروا فيما كتبوه عن بنى أمية بكراهة العباسيين لهم ولأشياعهم حيث وضعناهم عند كلامنا عنهم فيما تقدم . ولا غرو فقد كان هؤلاء يصورون جهاد الأحزاب لبنى أمية — حين يعرضون للكلام عنه فى كتبهم — بأنه جهاد دينى لايكاد يختلف فيه موقف أنصار بنى أمية عن الموقف الذى كان يقفه الكفار ضد النبى حين قام بالدعوة إلى الإسلام . وكانوا يستندون فى ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثانى والوليد الثانى من الخلفاء الأمويين ، ولا سيما ما كان من هتك حرمة المدينة المنورة فى عهد

(١) الطبرى ٢ : ٣٤٠ (س ١٩ وما يليه) ، ٨١٠ . كانوا يقولون فى الكوفة : « من أعطانا الدراهم قاتلنا معه » . يدل على ذلك هذا البيت الهجائى :

ولا فى سبيل الله لاقى حمامه   أبوكم ولكن فى سبيل الدراهم

يزيد الأول و إباحة الحرم المكى بعد استيلاء عبد الملك على مكة . أضف إلى ذلك اتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس (١) وإلقاءهم خطبة الجمعة قبل الصلاة حتى لايتفرق الناس دون سماعها ، مخالفين فى ذلك سنة الرسول وسنة خلفائه أبى بكر وعمر وعثمان (٢) .

على أنه يتبين لنا مما كتبه المعاصرون لبنى أمية خطأ أولئك المؤرخين من أعداء الأمويين وتشويههم للحقائق . ولاغرو فقد كان السواد الأعظم من العرب يرى فى حزب بنى أمية حزب الدين والنظام (٣) ، كما أن عدداً كبيراً من المسلمين كان لايرى فى الاستيلاء على المدينتين المقدستين إلا ضرورة دعا اليها موقف أهل الحجاز العدائى دون أن يرى فى ذلك أى انتهاك لحرمتيهما (٤) .

كان أنصار بنى أمية يرون أنفسهم لحسب المسلمين حقاً . ومن ثم كانوا يكفرون خصومهم ويعاملونهم بنفس تلك القسوة التى كانوا يعاملون بها الكفار (٥) . فكان معاوية فى نظر الحزب الأموى خليفة الله ، كما كان ابنه يزيد إمام المسلمين ، وعبد الملك « إمام الاسلام » و « أمين الله » و « جنة الدين » ، وهكذا (٦) . وأما سبهم على بن أبى طالب جهاراً ،

(١) ابن رسته (طبعة دى غوية) ص ١٩٢ (٥) ؛ المقريزى : خطط ج ١ ص ٦٠ V. Viet, L' Art arabe, p. 34

(٢) Goldziher, Islamische Sludien, P. 41—19

(٣) انظر ما نقلناه بذيل الكتاب رقم ٢ .

(٤) انظر الأبيات ١٧ ، ٢٠ وما يليها من قصيدة أبى صخر الهذلى . ديوان هذيل طبعة Wellhausen ص ٩٢ .

(٥) الطبرى ٢ : ٤١٤ (س ١١ وما يليه) ، ٤١٥ ، ٤٢٥ (س ٥ وما يليه) وبوجه خاص ص ٤٦٩ ، ٤٧١ (س ١٥ وما يليه) .

(٦) وقد وردت هذه النعوت التى أتينا على ذكرها فى البلاذرى (طبعة Ahlwardt ص ١٢ ، ٣٠٣ ؛ العقد الفريد ج ١ ص ١٢٢ (س ١٦ وما يليه) .

فلا نكاره حق معاوية فى الخلافة . وخلاصة القول إن عليا وإن كان يكنيه الكثيرون من أنصاره « أبا تراب » فان البيت الأموى لم يعدم أنصاراً يدافعون عنه ويتحمسون له وهم العثمانية [١] ثم المروانية [٢] .

وقد وضعت الحرب أوزارها بين الطوائف الإسلامية فى خلافة عبد الملك ابن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) الذى قضى على ثورة الخوارج فى موقعة حروراء (٦٧ هـ) بعد أن هزمهم هزيمة منكرة (٦٥ هـ) بالقرب من عين الوردة ، كما انتهت أيضاً تلك الثورة التى أثارها أهل الحجاز باستيلاء الأمويين على مكة وقتل عبد الله بن الزبير آخر من كانوا يمثلون حزب الأنصار . وأما ثورة الخوارج فقد ظلت حتى سنة ٧٧ هـ حيث خمدت جذوتها على أثر وفاة قطرى ابن الفجاءة ببلاد طبرستان .

الطبرى ٢ : ٧٨ ، ٧٤٣ ، ٨١٠ (س ٥ ، ٦٠) ، ١١٧٦ (س ٩) . ديوان الفرزدق (طبعة بوشير) ص ٢١٩ والنص العربى ص ١١ وما يليها .

(١) Coldziher. p 381 l.l. الطبرى ٢ : ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٥٠ ؛ Goldzier p. 118 l.l. suiv. وقد قصر جولدتسهير العثمانية على المتطرفين من أشياع بنى أمية ، على حين كان يطلق هذا اللفظ أيضا على بعض الأحزاب المحايدة . انظر ابن الفقيه (طبعة دى غوية) ص ٣١٥ . « ما أهل البصرة فعثمانية يدينون بالكف يقولون كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل » . وهذا جلى ؛ فقد كان هناك كثيرون كانوا لا يشايعون بنى أمية فى سورية . ومع ذلك فقد كانوا لا يرضون عن قتل عثمان لا لشىء سوى أنه مع أبى بكر وعمر ، كما كان أحد الصحابة الذين اشتهروا بالإخلاص لمحمد (صلى الله عليه وسلم) . ومن بين هؤلاء العثمانية البصرية (الذين قاتلوا فى صفوف طلحة والزبير) ، كما كانوا أيضا من الأنصار من أهل المدينة ـ الأغانى ج ١٥ ص ٢٧ (س ٣) .

(٢) ولم تظهر هذه التسمية إلا عندما ولى مروان الخلافة بدمشق ـ الطبرى ٢ : ٨٠٤ (س ٣ ، البلاذرى (طبعة Ahlwardt ص ٢٢١ .

أما عصر الوليد الأول وسليمان بن عبد الملك فكان عصر انتقال وفتح لا يكاد يمدنا بشىء عن تلك الأحزاب .

على أن الأمويين لم يستطيعوا القضاء على تلك الأحزاب واستئصال شأفتها (اللهم إلا إذا استثنينا حزب الأنصار) . فالخوارج والشيعة الذين مزق جند بنى أمية أوصالهم وأفقدوهم خيرة رجالهم ، وإن لم يبق لهم من القوة مايمكنهم من مقاومة الأمويين وإعلان الحرب عليهم جهاراً ، فإن مبادئهم مافتئت أن انتشرت ، وذلك لملاءمتها لتلك الحالات الاجتماعية الجديدة التى نشأت فى الدولة العربية فى الشرق . وهكذا تطور هذا النزاع السياسى للأحزاب العربية إلى جهاد اجتماعى دينى .

لم يصغ الأمويون — كما رأينا — إلى أية حركة من حركات الإصلاح . وأما محاولة عمر بن عبدالعزيز فإنها لم تزدد إلا حرجاً لما كانت تتأثر به من تحفظ ورجعية لا تتفق مع حالة الدولة الاقتصادية . ولا غرو فقد أنضبت بيت المال وألجأت الحكومة إلى الرجوع إلى نظام الضرائب الذى وضعه الحجاج ابن يوسف ، وذلك بتهيئة الفرص لاعتناق الإسلام ورفع الجزية عمن أسلم . ومن ذلك الحين انفصلت الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشره عن سياسة الأمويين الاقتصادية على أثر ما ظهر بينهما من التعارض . وإن فى الثورة التى قام بها أنصار الحارث لأقوى دليل على صحة هذا القول . فقد خاض المسلمون غمار هذه الحروب التى استعرت نارها بين الطوائف وضموا شكواهم إلى شكوى الأعداء القدامى للبيت الأموى . وهكذا ظل النزاع على الإمامة قائما ، ولم يزده دعاة أهل الحق والعدل إلا احتداماً وتأججاً .

ففى بلاد العراق والجزيرة نصَّب الخوارج أنفسهم منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحربا على المستبدين والطاغين [١] .

---

(١) الطبرى ٢ : ١٦٣٤ Fragmenta, p. 41 suiv. et Ibid paenult

وفى إفريقية مد هؤلاء الخوارج البربر المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التى استعانوا بها على قتال ولاتهم فى تلك البلاد [١] : كذلك ثار ببلاد اليمن عبد الله بن يحيى الخارجى الملقب بطالب الحق احتجاجا على ذلك الاستبداد الظاهر وتلك المعاملة القاسية التى كان يعامل بها ولاة بنى أمية أهل تلك البلاد [٢] . وكان الخوارج فى ذلك الوقت غير الخوارج الذين حاربهم الأمويون وانتصروا عليهم من قبل ؛ فقد كانوا يحاربونهم بسيف الدين ويقارعونهم بحجج الإسلام . وقد وضع الخوارج تلك القاعدة ، وهى أنَّ مرتكب الكبيرة كافر — حين تطور النزاع بينه وبين أعدائهم من الأمويين وانحصر بين الرضى أو عدم الرضى عن كل حكومة جائرة أيا كانت تلك الحكومة ، بعد أن كان نزاعا شخصياً محضاً ينحصر فى شرعية خلافة فلان أو فلان × × وهكذا ظلت تلك القاعدة القديمة التى وضعها الخوارج — وهى تكفير المؤمن العاصى — رغم تغير موضوعها واختلافه باختلاف الأحوال التى كانوا يطبقونها عليها .

ويدلنا حال هؤلاء الخوارج — وكذلك حال المرجئة — على مدى تأثير ذلك التطور الجديد فى نمو حركة هذه الطوائف وانتشارها .

وكان من أثر ذلك أن عرضت للبيت الأموى مشكلة لم يكن يحلم بها أصلا . فقديماً حارب الأمويون أعداءهم السياسيين بأسلحة تكاد تكون

(١) الطبرى ١ : ٢٨١٥ . وقد ترجمت هذه العبارة فى الملحق الثالث .

(٢) الأغانى ج ٢٠ ص ٧٩ (س ٧ ، ٨ ، ١٥) . أنظر الملحق الرابع .

× × كان موضوع هذه القاعدة موضوعا شخصيا معينا لا يكاد يعدو شخص على ومعاوية ، ثم تطور من الحكم على الأشخاص إلى الحكم على المبادئ . ومن ثم صار الخوارج أعداء أية حكومة جائرة ، أموية كانت أم علوية والسر فى هذا التطور دخول غير العرب فى هذه الطائفة التى غدت منذ ذلك الحين لا ترى مانعاً من إسناد الخلافة إلى الموالى — المترجمان .

متكافئة . وها نحن نرى هؤلاء المناوئين لعرش بنى أمية يظهرون من جديد بقوة لا قبل للأمويين بها فى نفس اللحظة التى كان هؤلاء يعتقدون أنهم قد قضوا عليهم القضاء الأخير . ولا غرو فقد كانت تعوز بنى أمية القوة المعنوية الضرورية لقمع تلك الثورة النفسية . وكان جواب الحكومة الوحيد على شكايات الخوارج ومطالبهم الجديدة هو إعلان الحرب عليهم جهاراً .

وقد انهزم أولئك الثائرون الغلاة فى بلاد العرب والعراق وبلاد الجزيرة بفضل ما أظهره مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية من الحزم والجد فى مناجزتهم . على أن الأمويين ، وإن كانوا قد انتصروا على هؤلاء الخوارج فى تلك المرة أيضاً ، قد فقدوا آخر جندى من جنودهم .

ومن ذلك الحين نرى حزب الشيعة يعاود الظهور بقوة لم يستطع الأمويون مواجهتها .

وقد تفرعت الشيعة من ذلك الحزب السياسى الذى قضى عليه الأمويون بحروراء ، ثم انتشرت وقامت بحركة سياسية اجتماعية دينية واسعة النطاق ضمت إليها جميع العناصر الإسلامية المعادية للعرب وللأمويين جميعاً .

وهكذا كانت نشأة تلك الحركة ، وهو ما سنعرض له فيما يلى .

— ٢ —

عقائد الشيعة

حارب الشيعة من عرب الكوفة الأمويين أول الأمر للدفاع عن حق على فى الخلافة ثم للأخذ بثأر ابنه الحسين الذى قتل بين ظهرانيهم دون أن يجرؤ أحد منهم على إغاثته .

ولم يكن إخلاص العرب من أهل الكوفة لآل البيت بريئاً من جهات كثيرة . فقد أنساهم ما كانت تغمرهم به الحكومة الأموية التى كانوا يدينون لها بالخضوع والطاعة من الأعطيات والأرزاق ما قطعوه على أنفسهم من

العهود والمواثيق لآل على كلما دعاهم هؤلاء لمناصرتهم ، كما تركوا المختار منذ اللحظة التى منح فيها الموالى نفس الحقوق التى كانت للعرب من أهل الكوفة (أنظر ص ١٦ من الكتاب وص ٤٠ — ٤١ من الترجمة) . ويفسر لنا حسن لقاء الكوفيين لدعاة البيت العلوى تقلب أهل الحضر من هذه البلاد وما جبلوا عليه من الشقاق والنفاق ، ثم خوفهم من قتال الخوارج الذين كانوا يذبحونهم كما تذبح الشاة ، وكراهيتهم أن يروا سوادهم فى أيدى الأمويين الذين كانوا يطلقون عليه بستان قريش .

على أنه قد ظهرت منذ أيام المختار أفكار جديدة كان لها أثر كبير فى نفوس الكثيرين من الشيعة .

ويظهر أن هذه الأفكار التى نشأت فى مبدأ أمرها فى البيئات الغير العربية إنما كانت بقية من عبادة الملوك ، تلك العبادة التى كانت مشهورة عند قدماء الفرس بعد أن خالطها بعض العقائد الأشراقية × × ، والتى لا يبعد أن

× × الأشراقية أو اللاءدرية وهى مذهب من مذاهب الفلسفة الدينية ، نشأ فى فجر الدين المسيحى . ويزعم أتباعه أن لهم معرفة تامة بالطبيعة وبصفات الله ، كما يعتقدون أن طريق النجاة إنما هو العلم لا الإيمان .

وهذا المذهب قريب من الأفلاطونية والمانوية . أما أنصاره فهم إما أفلاطونيون حاولوا التوفيق بين الأفلاطونية وطقوس المسيحية ، وإما مسيحيون أرادوا الجمع بين المسيحية وبين العقائد التى كانت سائدة فى الشرق القديم .

وقد ساعدت مناوأة رجال الكنيسة لهذه الطائفة واضطهادهم لأتباعها على ظهورها وانتشارها . ويبلغ عدد فرقها سبعين فرقة ترجع جميعها إلى خمس فرق أساسية : (١) الفرقة الفلسطينية ومن زعمائها سيمون المجوسى Simon le Magicien وقد خلط بين العقائد اليهودية التى أخذها عن التوراة بعقائد بعض الديانات القائلة بتعدد الآلهة وجمع منها قواعد مذهبه (٢) والفرقة الأشورية وهى قريبة من الزرادشتية (٣) والفرقة المصرية ومن أشهر زعمائها بزليدس Basilides وفالنتين Valentin

تكون قد انتقلت إليهم عن طريق الديانة البابلية القديمة .

وكان من بين العقائد المسلم بها عند الشيعة من أهل الكوفة أن الحكمة العالية التى أفاضها الله على محمد (صلى الله عليه وسلم) ليفصل على

---

(٤) والفرقة المعتزلة (المنشقة) (٥) ثم الفرقة الأسيوية وتعتمد فى عقيدتها أكثر من غيرها من الفرق والأخرى على كثير من نصوص الإنجيل .

وأساس جميع هذه المذاهب هو القول بوجود إلهين أو مصدرين أساسيين للوجود هما إله الخير وإله الشر . ومن ثم لا تكاد تختلف عن المانوية فى شىء اللهم إلا بقدر ما كانت تمتاز به من الرقى الفكرى .

ويتلخص مذهب هؤلاء الأشراقيين فى أن هذا العالم الذى نعيش فيه قد صدر عن إله غير معصوم من الخطأ ، وأن أول ما خلق منه هى النفوس الطاهرة والأرواح الخالصة من كل شائبة . ثم تلا ذلك التجسد وهو هبوط الروح من ملئها الأعلى ودخولها فى الجسم واختلاطها بالمادة . وقد ابتدأ هذا التجسد بدخول الأرواح فى أجسام النساء . وهذا التجسد فى نظرهم هو الخطيئة الكبرى التى يجب التكفير عنها بالتوبة . ولما كانت المادة عندهم هى مصدر الشر ، كان كل جسم فى نظرهم مقبوحا وكل لذة بدنية مزدولة . ومن ثم نشأ مقتهم للزواج وتحريمهم ملكية الأشياء وبغضهم للحياة الدنيا .

وقد استطاع أنصار هذا المذهب التوفيق بين طقوس مذهبهم وبين مطالب الحياة المادية وتفادى تلك الصعاب التى قد يضطرهم إليها تطبيق مبادئهم على شئون الحياة الدنيوية ، فلجأوا إلى بعض الحيل والفتاوى . من ذلك قولهم بأن الملاذ وإن كانت مرذولة فلا بأس من تناولها بقدر ما تقضى بذلك حاجة الحياة وضرورة الوجود ما دمنا نستنكرها بقلوبنا . وقد تابعهم فى ذلك كثير من الطوائف الأخرى ، وظلوا على ذلك حتى جاء كاربورات Carporate فلم ترقه تلك الفتاوى وما جرت إليه من فساد أخلاق ، فحرم جميع الملاذ . ثم جاء ابنه إيبفان Epiphane فحرم الملكية الفردية ودعا إلى الإشتراكية .

أنظر كلمة Gnostic فى دائره معارف لاروس ودائرة معارف كامل — المترجمان .

هديها فى الأمور وفق إرادة الله لم تزل بموت النبى ، وإنما ورثها عنه أعقابه .

وكان البعض يعزو إليهم علماً لم يحصلوه على النحو الذى تحصَّل به العلوم البشرية وإنما تلقوه من لدن الحكمة الآلهية مباشرة . وهاك ما كتبه الخليفة هشام إلى واليه يوسف بن عمر[١] : « أما بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة فى حبهم أهل هذا البيت ووضعهم إياهم فى غير مواضعهم لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ما هو كائن » .

وقد بلغ من تشيع أهل الكوفة لآل على أن كانوا يؤمنون بكل حديث أيا كان ، سواء تضمن أو لم يتضمن بعض الأمور التى تتعارض مع ظاهر ما جاء به القرآن مادام ذلك الحديث قد جاء على ألسنة الأئمة من آل علىّ ومن ثم كان أهل الكوفة يبيحون القليل من النبيذ . وإلى القارىء ما ذكره فى ذلك صاحب العقد : « بينما كان زيد بن على فى بعض أزقة الكوفة إذ مر به رجل من الشيعة ، فدعاه إلى منزله وأحضر طعاما . فتسامعت به الشيعة فدخلوا عليه حتى غص المجلس بهم ، فأكلوا معه ثم استقى . فقيل له أى الشراب نسقيك يا ابن رسول الله ؟ قال أصلبه وأشدّه . فأتوه بعتيق من نبيذ فشرب . . . . وشربوا ثم قالوا يا ابن رسول الله ! لو حدثتنا فى هذا النبيذ بحديث رويته عن أبيك عن جدك فإن العلماء يختلفون فيه . قال نعم ! حدثنى أبى عن جدى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لتركبن طبقة بنى إسرائيل حَذو القذة بالقذة × والنعل والنعل . ألا وإن الله ابتلى بنى إسرائيل بنهر طالوت (القرآن الكريم ٢ : آية ٢٤٩ لا ٢٥٠ كما ذكر المؤلف) أحل منه الغرفة والغرفتين وحرم منه الشرب . وقد ابتلاكم بهذا النبيذ أحل منه القليل وحرم منه الكثير . وكان أهل الكوفة يسمون النبيذ نهر طالوت[٢] » .

(١) الطبرى ٢ : ١٦٨٢ .

× القذة بالضم ريش السهم والجمع قذذ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٧ .

وكان طبيعياً أن يعتبر الناس هؤلاء الأئمة أنفسهم المرجع الوحيد لتفسير هذا الاعتقاد وتحديد مداه بعد أن تأصل فى قلوبهم الاعتقاد بعصمتهم . وإلى القارىء تلك العبارة التى أثرت عن على[١] : « أحلم الناس صغاراً وأعلم الناس كباراً . ألا وإنا أهل البيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا ومن قول صادق سمعنا . فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ؛ معنا راية الحق ، من يتبعها لحق ومن تأخر عنها غرق » .

ويتضح لنا الاعتقاد بعصمة الأئمة من لفظ « المهدى » ، وهو لقب الشرف الذى كان يلقب به الأئمة من آل البيت (ومعناه الهادى إلى الطريق المستقيم)[٢] .

وكان بعيداً أن تقتصر تلك العقائد التى أتينا على ذكرها على أهل العراق وعلى طائفة معينة من الجدد فى الإسلام ولا سيما إذا علمنا أنها نشأت فى الكوفة وتأثرت بالديانات السابقة للإسلام . وقد انتشرت تلك العقائد فى جزء عظيم من الدولة الإسلامية بقدر إزدياد تذمر المسلمين وسخطهم ثم ضعف الدولة الأموية وانحلالها . وقد ظهر الاعتقاد بأنه ليس ثمة صلاح لهذه الأمة إلا على أحد الأئمة من آل البيت فى جميع الولايات الاسلامية ، حيث أدرك الناس أن الأمويين أصبحوا لا يعنون إلا بمصالحهم الشخصية دون مصلحة الدين الذى أخذوا على عاتقهم نشره .

وكان طبيعياً أن لا تعوز الأمة الإسلامية الرجال السياسيون والزعماء المتحمسون الذين يرقبون الفرص لتركيز ميول الجماهير ويستغلون تلك الأمانى المبهمة لقيادة الأمة نحو وجهة معينة ، كما هو الحال فى

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) الطبرى ٢ : ٥٤٦ (٢) ، ٦٠٨ ، ٣٥٠٠(١٤) ، ٣٥٣(٢٠) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧١٠ ؛ سنوك هرجرونية Der Mahdi, p. 6 (n. 7) .

أوقات الشدة والتذمر حيث تضل العقول وتتبلبل النفوس وحيث لا تزال الأفكار فى دور الاختمار . وهكذا ظهرت فى ذلك الوقت العصيب البعثات المنظمة (الدعاة) فى جميع الولايات الإسلامية يحثون الناس على اعتناق العقائد الشيعية .

ويجب علينا ، لكى ندرك مدى أثر تلك البعثات ، أن نعرض للكلام على أولئك المتطرفين من الشيعة الذين يسميهم العرب « الغالين أو الغلاة » .

— ٣ —

طوائف الشيعة

من اليسير تقسيم هؤلاء الغالين أو المتطرفين ، الذين كان يعتبرهم الفقهاء من العرب إحدى طوائف الشيعة ، والذين كان تقديس آل البيت جزءاً هاما من معتقداتهم ، إلى طائفتين هما السبئية والكيسانية .

أما السبئية (أنصار عبد الله بن سبأ الذى كان يرى أحقية علىّ بالخلافة منذ أيام عثمان بن عفان) فكانوا يعتقدون أن جزءاً إلهياً تجسد فى علىّ ثم فى خلفائه الأئمة من بعده . وليس من الضرورى — حسب زعمهم — أن يظهر ذلك الجزء (الروح) الإلهى دائما فى ذلك العالم ، بل يجوز أن يعود إلى مقره الألهى حتى يتجسد فى شخص آخر . ويسمون الفترة الذى يغيب فيها ذلك الجزء « الغيبة » ، ورجوعه إلى الأرض « الرجعة » ، كما يسمون انتظار ظهور الإمام « التوقف » .

ويعتقد هؤلاء الذين يقولون بالتوقف أن علياً يجىء فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، بينما يجيز البعض الآخر انتقال ذلك الجزء الإلهى إلى أولاد على من بعده . ومن ثم ينتظرون ظهور الإمام . ويزعم هؤلاء أن ابن ملجم الخارجى لم يقتل علياً وإنما قتل الشيطان بعد أن

تشكل بشكله ، إذ كانوا لا يسلمون بفناء الجزء الإلهى الذى تجسد فى شخص على ، أو بالأحرى كانوا لا يعتقدون بموت على [١] .

ويظهر أن عقيدة السبئية إنما بنيت على الرأى القديم القائل بتجسد الألوهية ، بخلاف ما ذهبت إليه الكيسانية التى ظهرت منذ أيام المختار حين ثار بالكوفة [٢] . وتغلو الكيسانية فى اعتقادها باحاطة الأئمة بالعلوم الألهية ، فتذهب إلى أن محمداً بن الحنفية قد أحاط بالعلوم كلها ، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا إليه بالأسرار كلها وبعلم التأويل والباطن . وقد انتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة إلى القول بضرورة طاعته ، إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الإلهى (وهذا ما يميزهم عن غيرهم من المعتدلين من الشيعة) . ويقول الشهرستانى « إن جميع الكيسانية يعتقدون أن الدين طاعة رجل ، وأن طاعتهم لذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام » (كالصلاة والصوم والحج وهكذا) [٣] .

---

(١) الشهر ستانى (طبعة Cureton) ص ١٣٢ ومايليها ترجمة (Hoorbriicker, II. 411 لايتفق ماعزاه الشهر ستانى إلى السبئية مع ماذكره الطبرى (Weil, I. 173) عن عبد الله بن سبأ . من ذلك قوله إن لكل نبى وصى أو وزير ، وإن الوصاية كانت لعلى باعتباره وزير محمد ، وإن محمداً سيعود إلى الأرض .

على أنى لم أتردد فى الأخذ بما ذكره الشهرستانى . فقد شاع مذهب تجسد الألوهية فى شخص على من قبل ، سواء عزى هذا المذهب إلى ابن سبأ أو لم يعز إليه . انظر طاهر الأصفهانى Weil, I. 259, Haarbriicker II. 41 والبلاذرى Z. d. D. M. g. XXXVII. p. 391 والشهر ستانى ص ١٣٢ ، وابن رستة (طبعة دى غوية) ص ٢١٨ (س ٦ ومايليه) ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣٠ .

(٢) فان جلدر : المختار ص ٨٢ وما يليها .

(٣) الشهر ستانى ص ١٠٩ .

ومن هنا يتضح لنا الفرق بين عقيدتى السبئية والكيسانية ، فقد كانت السبئية تقول بحلول الجزء الإلهى فى الإمام وتجعل له نصيباً من الألوهية نفسها ، بينما تعتبره الكيسانية رمزاً للعلم الإلهى . وصفوة القول أن السبئية وإن كانوا يعتبرون إمامهم شخصاً مقدساً ، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة محيطا بعلوم ما وراء الطبيعة . وتتفق الطائفتان فى القول بالرجعة ، أى رجعة الإمام . إلا أن السبئية يقولون بعودة الإمام من مقره السماوى ، على حين ترى الكيسانية أن الإمام لا يعلم به حتى ساعة ظهوره . وقد ظهرت هذه العقيدة فى شعر الشعراء المشهورين الذين يدينون بعقيدة الكيسانية [١] . من ذلك قول كثير فى محمد بن الحنفية :

وسِبْطٌ لا يذوقُ الموتَ حتى ... يقودَ الخيل يتبعها اللواء

تغيَّبَ لا يُرى عنهم زمانا ... برضوى [٢] عنده عسل وماء [٣]

وقد ضعف نفوذ السبئية على مر الحوادث . إلا أن مذهبهم فى التجسد مافتىء ينمو وينتشر [٤] . وسنرى أن هذا المذهب قد ظهر فى شكل جديد حين نعرض للكلام على عقيدة الراوندية .

أما الكيسانية ، ومن بينهم الهاشمية ، أنصار أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، فكانوا يقولون : « إن لكل ظاهر باطناً ، ولكل شخص روحا ،

(١) أنظر ما كتبه مسيو باربييه دى مينار عن لفظ « سيد » فى المجلة الأسيوية (١٨٧٤) ج ٢ ص ١٥٩ وما يليها .

(٢) جبل بالقرب من ينبع حيث كانت ممتلكات آل البيت .

(٣) الشهرستانى ص ١١١ والأغانى ج ٥ ص ١٨٢ وما يليها .

(٤) وقد اشتركوا فى الثورة التى أثارها المختار وعبد الرحمن بن الأشعث (ديوان الفرزدق طبعة بوشير ص ٦٣٢ . وفى النص العربى ص ٢١٠) . ومما لا ريب فيه أن هذا الاسم كان خاصا بهذا المذهب . فقد جرى العرف بإطلاق السبئية على جميع الغلاة من الشيعة .

ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة فى ذلك العالم ، والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى ، وهو العلم الذى استأثر علىّ عليه السلام به ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبى هاشم . وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً » [١] .

ولعقيدة الهاشمية أهمية كبيرة فى تاريخ الشيعة . فقد ساعد ما ذهبت إليه من التأويل والقول بأن لكل ظاهر باطناً على تسرب الكثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة ـ تلك العقائد التى انتقلت إليها عن المجوسية والمانوية ×

(١) الشهرستانى ص ١١٢ (طبعة مصر سنة ١٣١٧ هـ ج ٢ ص ٢٠١) .

× المانوية نسبة إلى مانى . وقد حاولت هذه الطائفة — كما حاول القدامى من الاشراقيين — التوفيق بين المسيحية والوثنية فى الشرق . وقد أخذت عقائدها وطقوسها عن التوارة وعن الفارسية القديمة Parsisme ثم البوذية . ويقول أنصار هذه الطائفة بالإثنينية وهى العقيدة الأساسية لديانة الفرس . ومن ثم يقولون بوجود مصدرين إلهيين لهذا العالم ، أحدهما إله الخير ويرمزون له بالنور والثانى إله الشر ويرمزون له بالظلمة ، ويسمون الأول إله النور والثانى إله الظلمة ، وهو الإله الذى صدر عنه هذا العالم المادى . وقد ندد عليهم بعض شعراء المسلمين بقوله :

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبِّر أن المانوية تكذب

وقد بلغ من احتقارهم للمادة أن كانوا يزعمون أن الشيطان قد خلق منها . وانتشرت المانوية فى الشرق ولا سيما فى بلاد الفرس والهند ، وفى بلاد التبت والصين والتركستان حيث ظلت مزدهرة بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتقلت إلى الغرب حتى وصلت إلى جنوبى إيطاليا . وقد دعا القديس أوغسطين Saint Augustin إلى هذا المذهب وعمل على نشره زهاء ثمان سنوات . ومناوأة كل من فالنتيان Valentin سنة ٣٧٢ م ثم تاودوسيس الأول Thedosius 1. سنة ٣٨١ م مناوأة شديدة وأصدرا ضده المراسيم الشديدة .

أنظر دائرة معارف لاروس — المترجمان .

والبوذية وغيرها من الديانات الذى كانت سائدة فى آسيا قبل ظهور الإسلام .

وقد هيأ النفوس إلى اعتناق الإسلام انتصار المسلمين بعد أن هدموا الكثير من العقائد القديمة . على أنه سرعان ما ظهر أثر عكسى لهذا النجاح الذى أحرزه المسلمون فى نشر دينهم . فقد عصفت فى تلك الولايات التى فتحها العرب عاصفة من عواصف البغض للإسلام × ولكل دين سماوى وسارت

× لم يقل أحد من المؤرخين أن أحداً ممن هداهم الله إلى الإسلام وشرح صدورهم له قد أرتد عنه بعد أن دخل فيه راضياً : ولن تعوزنا الأمثلة التاريخية الكثيرة لتأييد هذا الرأى ؛ فقد كان مشركو قريش يسومون المستضعفين من المسلمين سوء العذاب ليفتنوهم عن دينهم ، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً وتسليما . من ذلك ما ذكره ابن الأثير من أن مشركى قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح (الرمل المنبسط على وجه الأرض . وهو بين مكة ومنى — أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت) إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها . فمات ياسر . وأغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل فطعنها بحربة فماتت . وهى أول شهيدة فى الإسلام ثم أمعن المشركون فى تعذيب عمار بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره تارة ، ثم بالتغريق تارة أخرى .

وهذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خلف الجمحى من مشركى قريش يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على صدره ، ويقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : أحد أحد ! فيقول ورقة : أحد أحد والله يا بلال . ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

أما خباب بن الأرت فقد عذبه الكفار عذابا شديداً ، فكانوا يوثقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف (وهى الحجارة المحماة بالنار) ؛ فلم يزده ذلك إلا تمسكا بالإسلام وإخلاصاً له . وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد معه المشاهد كلها . =

جنباً لجنب مع تذمر الموالى وتمردهم . ولما كان الإسلام يعاقب المرتدين عنه بالقتل لم يجرؤ أحد من هؤلاء على الارتداد عن هذا الدين جهاراً ؛ ومن ثم

= ولم يقتصر تعذيب قريش المسلمين على الرجال بل تعداه إلى النساء . فقد أسلمت لَبِيْنة جارية مؤامل بن عدى قبل إسلام عمر بن الخطاب ؛ فكان عمر يمعن فى تعذيبها حتى يمل ، ثم يدعها ويقول : إنى لم أدعك إلا سآمة . ولم تزل فى هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها (ابن الأثير ٢ ص ٣٠ — ٣٢) .

وقد شهد كل من أبى سفيان وهرقل إمبراطور الروم للإسلام بتلك الشهادة التى تعتبر وثيقة تاريخيه على ما لهذا الدين من أثر فى النفوس وسلطان على القلوب فى ذلك الحديث الذى دار بينهما . وكان أبو سفيان إذ ذاك من أئمة الكفر وزعماء المشركين ومن ألد أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام . أضف إلى ذلك حقده على الإسلام والمسلمين بعد أن وتروه فى غزوة بدر الكبرى وقتلوا سبعين من صناديد قريش ممن كانوا يحاربون المسلمين تحت لوائه . وإلى القارىء طرفا من هذا الحديث .

« قال أبو سفيان : خرجنا فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام . . . . ووالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته (شرطة هرقل) ، فقال : أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) ؟ قلنا : نعم ! قال : انطلقوا بنا إلى الملك . فانطلقنا معه . فلما انتهينا إليه . . . قال : أيكم أمس به رحماً ؟ قلت : أنا . . . فقال : ادنه (اقترب) . فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ثم قال : إنى سأسأله ، فإن كذب فردوا عليه . فوالله لو كذبت ماردوا على . ولكنى كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك علىّ ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه . فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى . قال : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له : أيها الملك ! ما يهمك من أمره ، إن شأنه دون ما يبلغك . فجعل لا يلتفت إلى ذلك منى ثم قال أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه . قلت : سل عما بدا لك . قال :

ذهب هؤلاء يتلمسون سعادتهم الروحية بعيداً عن الإسلام وعقائده . وقد وجدت العقائد البابلية القديمة والآرية وغيرها الطريق إلى نفوس هؤلاء .

كيف نسبه فيكم ؟ قلت: محض ، أوسطنا نسبا . قال : فأخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟ قلت : لا . قال : فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا : فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ؛ وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟ (وفى رواية أخرى هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟) قلت : ما تبعه رجل ففارقه . قال : هل يغدر ؟ فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها . قلت لا ! ونحن منه فى هدنة (يريد صلح الحديبية) ولا نأمن غدره . قال : فوالله ما التفت إليها منى . ثم كر على الحديث فقال : سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض ، من أوسطكم نسبا ، وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء . وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه (وفى رواية أخرى وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا . فلئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك . قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى وأقول : إى عباد الله ! لقد أمر أمر ابن أبى كبشة (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يكنيه كفار قريش بأبيه من الرضاع استخفافا به . وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التى أرضعت الرسول) أصبح ملوك بنى الأصفر (يعنى الروم) يهابونه فى سلطانهم بالشام ! » .

وهكذا نشأ من اختلاط هذه العقائد بالإسلام مذاهب جديدة طالما كانت تظهر فيها العقائد الإسلامية تغمرها الأمواج المتلاطمة من الخرافات والبدع .

صحيح البخارى (طبعة بولاق سنة ١٣١٣ هـ) ج ١ ص ٨ ، الطبرى (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٨٥ — ٨٧ ، فتح البارى (شرح البخارى) لابن حجر العسقلانى (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) ج ١ ص ٢٤ — ٣٤ ، عمدة القارى (شرح البخارى للعينى) (القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ) ج ١ ص ٩١ .

وليس أدل على صحة ما ذهبنا إليه مما جاء فى كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ٢٢٣ وما يليها . للمرحوم السير توماس أرنولد . فقد ذكر أن شابا من المسيحيين اعتنق الإسلام بسمرقند ، فشكا المسيحيون ذلك إلى أحد رجالات المغول من ذوى النفوذ ومن أكبر المشايعين للمسيحية . ثم اتهموا المسلمين بتحريضهم المسيحيين على الدخول فى الإسلام . فأمر ذلك المغولى بإحضار هذا الشاب وأخذ يغريه على الأرتداد عن الإسلام حينا وبالتهديد والوعيد حينا آخر . ولما يجد ذلك نفعا فى صرف هذا الشاب عن دينه بالمال الجديد لجأ الأمير إلى وسائل الشدة ، ولم يدع نوعا من أنواع التعذيب إلا أذاقه إياه ، فلم يزده ذلك إلا إيمانا . ولما لم يعبأ بوعود ذلك المغولى وتهديده أمر به فقتل . وهكذا استشهد هذا الشاب مؤثراً الموت على الارتداد عن الإسلام . ويذكرنا هذا بقول الشاعر العربى :

ولستُ أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وهكذا ظل الإسلام فى كل أدواره لا يدخل قلب امرىء إلا كان أحرص عليه من حياته ، يبذل نفسه دون الإرتداد عنه ويرق دمه فى سبيل الحرص عليه .

وما لنا نذهب بعيداً وقد أيد المؤلف نفسه صحة ما ذهبنا إليه فى غير موضع من هذا الكتاب ، ولا سيما حين عرض للكلام عن ثورة الموالى والجند فى الإسلام إذ يقول (ص ٣٢ من الكتاب ، ٦٦ من الترجمة) ما نصه : « وأما الجند فى الإسلام من إقليمى بخارى وسمرقند ، وإن كانوا قد انصرفوا عن العرب (الأمويين) وخرجوا عليهم ، فليس معنى هذا أنهم ارتدوا عن الإسلام » . ثم قوله (ص ٢٤ من الكتاب ، ٥٤ — ٥٥ من الترجمة) « وقد أحفظ بخارى

وقد تيسر للأفذاذ من ذوى العقول المرنة التوفيق بين حياتهم الأولى ومظاهر الحياة التى يتطلبها ذلك الدين الجديد ، على الرغم مما لاقوه من الانقلابات الاجتماعية الخطيرة والأزمات الفكرية العنيفة . وأما العامة فقد وقفوا فى

خودة (أمير بخارى) تغشادة اقتناع الكثيرين منهم (أهل بخارى) بصحة الإسلام واعتناقهم له . ولا غرو فقد كان لا يزال يبطن الكفر رغم إظهاره الإسلام . . وقد شنق بخارى خودة منهم أربعمائة . . ثم استرق من بقى منهم وأرسلهم إلى أسد ابن عبد الله بخراسان . على أن أحدا من هؤلاء ممن فروا من الموت لم يرتد عن الإسلام ، بل ظلوا جميعاً مؤمنين به » .

ولعله قد اختلط على « فان فلوتن » ، كما اختلط على الكثيرين من المستشرقين الذين كتبوا فى التاريخ الإسلامى ، بغض بعض أهل الولايات الإسلامية لبعض أمراء المسلمين بكراهة هؤلاء للإسلام وسخطهم عليه حتى خيل إليه أن هؤلاء قد سئموا الإسلام وملوه .

أما هؤلاء الذين ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنهم لم يرتدوا عنه لبغضهم إياه وكراهتهم له ، وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول . أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد عماد هذا الدين ، بل زعموا أن الزكاة إنما هى إتاوة يدفعونها للرسول . ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته .

على أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين حقاً ، فقد كان السواد الأعظم منهم من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق . وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذا فى غير آية من القرآن من ذلك قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم (ينقصكم) من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون . قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، والله بكل شىء عليم) ـ الحجرات سورة (١٤ ـ ١٦ (. ومما يدل على أن هؤلاء لم يسلموا حقاً وإنما تورطوا فى الدخول فى الإسلام منهم بإسلامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد ندد

وسط الطريق . وهذا ماحدث فى السنين الأولى للهجرة ؛ فقد لجأ الناس إلى تأويل الإسلام حسب أهوائهم ، لما كان يعوزهم من القوة المعنوية للإرتداد عنه ومجاهرتهم بالخروج عليه × × . ومن ثم ابتدءوا يستنبطون

عليهم القرآن فى ذلك بقوله (يمنون عليك أن أسلموا . قل لا تمنوا على إسلامكم ولكن الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين) ـ سورة الحجرات آية ١٧ ـ المترجمان .

× × لعل « فان فلوتن » يقصد أولئك الوصوليين الذين لم يدخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه ، وإنما دخلوه لأنه دين الفاتحين ولما عساه يدره عليهم من النفع أو يدرأ عنهم من الشر . وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، إذ لا تكاد تخلو أمة من الأمم من ذلك الفريق من ضعاف النفوس ومرضى القلوب ، ولا سيما فى تلك الأوقات العصيبة والانقلابات السياسية والإجتماعية العنيفة حيث يقوم دين جديد على أنقاض دين قديم وتقوم دولة فتية على أطلال دولة متداعية . ولقد منى الإسلام وابتليت الأمة العربية بتلك الطائفة التى اتخذت الإسلام جنة لتدبير المؤامرات ضد المسلمين . ولم يكن قتل عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة إلا نتيجة لتلك المؤامرة التى دبرها له الهرمزان لما كان يكنه من الحقد للعرب بعد أن ثلوا عرش الفرس ومزقوا دولتهم . كذلك اتخذ بعض اليهود والنصارى الإسلام ستاراً يكيدون من ورائه لهذا الدين الحنيف ، فأدخلوا فيه الكثير من الخرافات والأساطير التى لا تمت إلى هذا الدين الحنيف بصلة . ولولا ما قام به علماء المسلمين ، ولا سيما علماء التفسير ومصطلح الحديث لمقاومة ذلك الخطر الداهم لضاع الإسلام ولعصفت به أعاصير تلك الضلالات والبدع التى أثارها عليه هؤلاء الأدعياء على الإسلام منذ القرن الأول الهجرى .

أنظر نيكلسون : تاريخ العرب الأدبى ص ١٩٧ .

وقد بينا سياسة الإسلام حيال هؤلاء المرتدين عند الكلام على قتال أبى بكر لأهل الردة (أنظر هامش (١) صفحة ١٤ ـ ١٥ من الترجمة) . على أن الإسلام

منه مايلائم ميولهم ويتمشى مع حاجاتهم على حين أنهم تركوا الكثير من الفرائض الدينية التى كانت لا تروقهم . وكانت الطريقة الفذة التى كانوا يلجأون إليها ، هى التأويل الذى وضع أساسه الأئمة من سلالة محمد (صلى الله عليه وسلم) . وهذا ماحدا بجميع الساخطين والمتذمرين من الغلاة المتطرفين إلى الانضمام إلى الشيعة فى الدعوة إلى آل البيت .

وأما معاقبة الإسلام من ارتد × عنه بالقتل فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء ، إذ كان أخوف ماتخافه الدولة الإسلامية من الإبقاء على هؤلاء المرتدين أن ينقلبوا عيونا عليها ، وبذلك يصبحون شراً مستطيراً يهدد كيانها . ولا غرو فإن السياسة والدين لايكاد ينفصل أحدهما عن الآخر عند المسلمين :

كان شديد الحيطه فى أمر المرتدين ؛ فكان لا يأخذ فى ذلك بالشبه ولا يحكم فيه بالظنه ، إذ كان يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقاؤهم فيما التبس عليه من أمر الدين وما عرض له من الشبه فى صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة . إلى القارىء طائفة من أقوال الأئمة فى هذا الموضوع : قال أبو حنيفه : إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام ، لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها ، فعلينا إزالة تلك الشبهة ، أو هو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق فلا يكون ذلك إلا بمهلة ، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهله ، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام فى الشرع كما فى الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية فى البيوع) . فلهذا يمهله ثلاثة . كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسى (القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) ج ١٠ ص ٩٨ – ١٠٠ .

ويقول بعض فقهاء المالكية ما نصه : واستتيب المرتد وجوبا ولو عبدا أو امرأة ثلاثة أيام بلياليها من يوم الثبوت لا من يوم الكفر بلا جوع ولا عطش

— ٤ —

الهاشمية

وهنا يتساءل المرء : كيف كان موقف الأئمة من هذه المعتقدات التى بالغوا فيها وكانوا السبب فى ظهورها ؟ على أن التاريخ قد كفانا مؤنة الجواب عن هذا السؤال . فقد أنكر الأئمة بادىء الأمر ما نسبه إليهم الشيعة من تلك الصفات كإحاطتهم بجميع العلوم والأسرار . ولا غرو فقد رمى علىّ فى النار كل من دعاه إلها من هؤلاء الغلاة ، ونفى عبد الله بن سبأ إلى المدائن [1] .

بل يطعم ويسقى من ماله وبلا معاقبة وإن لم يتب . أنظر باب الردة وأحكامها فى الشرح الكبير للدردير (طبعة بولاق سنة ١٣١٩) ج ٤ ص ٢٧٠ ، حاشية الدسوقى ج ٤ ص ٢٦٧ .

ويقول الإمام الشافعى : « ويجب استتابة مرتد ذكراً أو غيره لأنه كان محترما بالإسلام ، وربما عرضت له شبهة فتزال . وقيل يمهل ثلاثه أيام » . أنظر باب الردة فى حاشية البجرمى على شرح المنهج (طبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « ومن ارتد عن الإسلام من الرجال والنساء وهو بالغ عاقل ، دعى إليه ثلاثة أيام » .

أنظر كشاف القناع على متن الإقناع (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) ج ٤ ص ١٠٠ — ١٠٥ .

× على أنه لا ينبغى أن يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر إلا إذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجمعاً عليه . وقد صرح العلماء بأنه لا يكفر مسلم بقول يحتمل الكفر مع تسع وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه واحد .

أنظر باب المرتد فى حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين . (طبعة مصر سنة ١٢٧٢ هـ) ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٩٢ — المترجمان .

(١) الشهرستانى ص ١٣٢ .

وجاء محمد بن الحنفية فشارك أباه فى آرائه الدينية ، وتورع عن أن ينتفع ويستفيد مما أحرزه أنصاره من النجاح فى الدعوة لآل البيت ، كما أنكر عليهم ما كانوا ينسبونه إليه من إحاطته بعلوم ما وراء الطبيعة [(١)] .

على أن موقف هؤلاء الأئمة السلبى لم يلبث أن تغير حين بدأ العلويون يدركون مقدار ماقد يستفيدونه من هؤلاء المفتونين بهم والمتحمسين فى الدعوة لهم ، ولا سيما بعد مارأوه من ضعف الدولة الأموية وما دب إلى جسمها من الانحلال . وكان عمر بن عبد العزيز يمقت الهاشميين لحبهم كثيراً [(٢)] من الشيعة الغلاة وصديق أبى هاشم الحميم ؛ وقد تكلمنا عنه فى الباب الأول . وإلى القارىء حكاية نقلها عن كتاب الأغانى علّها تصف ميول أبى هاشم ودهائه : كان أبو هاشم يرسل العيون لينقلوا إليه أخبار كثير . فإذا ماقابله أبو هاشم قال له : فعلت كذا وكنت بمكان كذا . وقد أخبره ذات يوم بما دار بينه وبين رجل آخر من الحديث كلمة كلمة ، فصاح كثير : « أنت رسول الله » .

وقد بينا أنه كان هناك حزب يدعى حزب الهاشمية يقدس أنصاره أبا هاشم ويزعمون أنه أحاط بالعلوم كلها ، ويرون أنه أحق بالإمامة من غيره . ونستطيع أن نستخلص مما رواه لنا بعض المؤرخين أن أباهاشم كان أول من نظم الدعوة لجذب الأنصار إلى هذا الحزب [(٣)] .

---

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد (مخطوط Gotha) ١٧٤٨ . أنظر لفظ محمد بن الحنفية : فبلغ محمداً أنهم يقولون إن عندهم شيئاً أى من العلم قال فقام فينا فقال إنا والله ماورثنا من رسول الله إلا مابين هذين اللوحين ثم قال اللهم حِلا وهذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى .

(٢) ج ٨ ص ٣٤ .

(٣) الطبرى ٣ : ٢٥٠٠ . اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥٦ وما يليها . ابن خلكان (طبعة وستنفلد) رقم ٥٧٩ ص ١٠٠ .

وقد ظهر لنا أن هذه الدعوة — وإن كانت دينية فى أصلها ونشأتها — لم توجه دعاتها نحو الغلاة من الشيعة إلا لتضم إلى صفوفها الكثيرين من المعتدلين ممن لم يحملهم بغضهم لمن كان يضطهدهم من ولاة الأمويين إلى كراهة الإسلام ، كما اضطرت بطبيعة الحال إلى التوفيق بين الإسلام والعقائد غير الإسلامية ، تلك العقائد التى كانوا لا يكشفون عن خباياها إلا لمن يكرسونه لهذه الدعوة . على أن الدعاة من الهاشميين قد أخذوا يطلعون العامة شيئاً فشيئاً على سر الدعوة الهاشمية حتى غدا ذلك جزءاً مكملا لنظام الدعوة الفاطمية فيما بعد . ولم يكن لتلك الدعوة سوى عيب واحد وهو أنه كان يشترط فى الدعاة الإخلاص التام للإمام والطاعة العمياء لأوامره . ومن ثم كان أكثر ما يخشى من ناحية هؤلاء الدعاة أن يسيئوا استعمال ما لقنوه من أسرار الدعوة وأن يخونوا الأمانة التى حملوها فيدعون لأنفسهم .

كان العراق — كما لا يخفى — مهد الدعوة الهاشمية . فكان داعى الدعاة يقيم بالكوفة ، على حين كان دعاته يطوفون البلاد المجاورة لها . وقد انفرد صاحب كتاب العيون [(١)] بالقول بأن خراسان كانت مهد هذه الدعوة . ولما كان ما ذكره صاحب هذا الكتاب إنما هو مقدمة لما تلاه من تلك الحوادث التى سنأتى على ذكرها ، كان من السهل أن نحكم بأن ما ذكره ذلك المؤرخ لم يكن إلا استنتاجا خاطئاً . أضف إلى ذلك أن هناك من الأدلة ما يبين أن الدعوة الخراسانية إنما ابتدأت على يد العباسيين أولاد العباس عم النبى بعد أن استخلفهم أبو هاشم وألقى إليهم بمقاليد الدعوة [(٢)] .

وإن تاريخ استخلاف أبى هاشم لأبناء عمه من العباسيين لأمر لا يكاد يجهله من له بعض الإلمام بالتاريخ الاسلامى .

---

(١) كتاب العيون ص ١ — ١٧ وما يليها .
Fragmenta historie. arabi. p. 180

(٢) ابن الفقية (طبعة دى غويه) ص ٣١٥ . المقدسى ص ٢٩٠ وما يليها .

مات أبو هاشم سنة ٩٨ ﻫ بالحميمة ، وهى قرية صغيرة من قرى فلسطين على حدود الصحراء الكبرى شمالى بلاد العرب ، حيث كان يعيش محمد ابن عبد الله بن العباس بعد أن أقصاهم حنق عبد الملك بن مروان عن بلاط دمشق . ويقال إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله أوصى إلى ولد العباس بحقه فى الإمامة ، وأمدهم بأسماء داعى دعاته فى الكوفة ومن يليه من الدعاة ، كما سلمهم كتباً يقدمونها إلى هؤلاء الدعاة . ومهما يكن من شىء فقد رأينا الإمام محمد بن على (العباسى) يضطلع بأعباء الدعوة بعد موت أبى هاشم[1] .

وليس من الصعب علينا أن نقف على الأسباب التى وجهت أنظار الإمام الجديد إلى بلاد خراسان . فقد امتاز أهلها عمن سواهم من أهل الولايات الأخرى — التى كانت خليطاً من العرب وغيرهم (كالعراق مثلا) — بالقوة والشجاعة ، كما ظلوا بعيدين عن كفاح الأحزاب السياسية فى دمشق حاضرة الدولة الإسلامية فى ذلك الحين . ولا غرو فقد كانت خراسان بلداً عذراء لم تنل منها الأهواء ولم تتقسمها الاختلافات الدينية ، يدل على ذلك خطبة الإمام محمد (بن على بن عبد الله بن العباس) ننقلها عن ابن الفقيه الجغرافى :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ وولده ؛ وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف ، تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل[2] ؛ وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بأهل خراسان، فان هناك العدد الكثير والجلد

(١) أنظر العقد الفريد ٢ : ٣٥٢ ، Fragm. hist. arab. p. 181. ، ابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ١١ والعبارات التى ذكرناها قبل ص ٤٤ حاشية (٣) (ص ٨٠ — ٨١ من الترجمة) .

(٢) أنظر ص ٣٠ حاشية ٣ من هذا الكتاب .

الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل ؛ وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة . وبعد فانى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

على أن هناك أمراً آخر — وإن لم يدل عليه كلام الإمام — قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختياراً موفقاً ، ذلك أن الخراسانيين الأقوياء الأشداء قد قاسوا أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين . ولسنا بحاجة إلى تكرار مساوىء النظام الإدارى فى عهد الأمويين ؛ فقد تكلمنا عنه فيما تقدم . وحسبنا أن نذكر القارىء بما كان من تذمر الأهلين وكراهتهم العمال الذين عرفوا بسوء السيرة ثم رغبتهم الصادقة فى المطالبة بالمساواة والعدل ، تلك الرغبة التى وقفنا عليها من ثنايا الحركة التى قام بها الحارث بن سُرَيْج . وهكذا كانت خراسان أرضاً خصبة لا تنقصها سوى بذور الدعوة لآل البيت[1] .

وقد أخلص الدعاة العباسيون لتلك الدعوة وأظهروا حماسة شديدة لنشرها فى الولايات الاسلامية ، فكانوا يجوبون بلاد خراسان لبثها ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة . ولا غرو فقد كان الولاة يضطهدونهم ويسومونهم العذاب قتلا وصلباً دون أن يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . ولما كان هؤلاء الدعاة من اليمانية ولد قحطان والمضرية من عرب الشمال ، كانوا يجوبون المدن والقرى حيث يصورون استبداد الأمويين بأسوأ الصور ويتهمونهم بأنهم لا يزالون يبطنون الكفر على الرغم من إدعائهم الإسلام . وكانوا لا يدعون لشخص معين ، وإنما كانوا يذيعون بين الناس أنه لا خلاص لهم إلا إذا ولى أمرهم آل البيت . ومن ثم نجحت جهود هؤلاء الدعاة . وقد عرفوا كيف

(١) الطبرى ٢ : ٩٥٠ و ١٤٣٤ و ١٥٠١ والدينورى (طبعة Girgass) ص ٣٣٧ .

يجذبون إلى صفوفهم الكثيرين من ذوى الرأى والجاه ، فكان لانضمامهم إلى الدعوة أثر عظيم فى قيام الدولة العباسية . نخص بالذكر من بين هؤلاء سليمان ابن كثير الخزاعى الذى بايع جده الرسول تحت شجرة الحديبية[1] . وليس بعيداً أن يكون أبوه قد رابط بخراسان مع المرابطين من الجنود العربية ، على حين كان يقيم هو فى سفيذنج[2] ، وهى قرية بواحة مرو . كما لا يفوتنا أيضاً أن نشير إلى شبيب بن قحطبة الطائى الشِّرنخشيرى[3] ، وكان من أنصار علىّ . كما كانت تربطه بابن سريج علاقة وثيقة لما كان بينه وبين زعيم المرجئة[4] من صلة الجوار القريب . وقد أسس هذان الرجلان مع عشرة آخرين جمعية أشبه بمجلس شورى تحت رياسة داعى الدعاة ؛ ثم اتخذ كل منهم لقب « نقيب » على نحو ما كان يفعله الإسرائيليون فى مجلس شوراهم (القرآن الكريم ٤ : ١٥) الذى كان يتكون من اثنى عشر حواريا ، ثم النقباء من أهل الشورى الذين انتخبهم الرسول من أهل المدينة[5] . وهكذا تأثر العباسيون فى تنظيم دعوتهم بمجلس الحواريين عند اليهود من ناحية ، فاتخذوا اثنى عشر نقيباً ، كما تأثروا من ناحية أخرى بمجلس الشورى فى عهد الرسول ، فاتخذوا سبعين داعياً[6] .

وهكذا سار كل ما دبره العباسيون سيراً حسناً إلى أن اتفق لهم حادث لم يكونوا ينتظرونه فعكر صفو سياستهم على ماسيأتى بيانه .

---

(١) أنظر هذا اللفظ فى كتاب الأنساب للسمعانى ، أنظر أيضاً Sprenger, ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٢) ونصادف هذا الاسم فى الطبرى ٢ : ١٥٩٥ .

(٣) أنظر لفظ شرنخشير فى كتاب الأنساب للسمعانى .

(٤) الطبرى ٢ : ١٩٣٢ (١٥) .

(٥) Sprenger, vol. II. p. 532

(٦) الطبرى ٢ : ١٥٨٦ ، ١٩٨٨ .

— ٥ —

الخرَّمية والراوندية

كانت الكوفة — التى ظهر منها الدعاة العباسيون — فى مستهل القرن الثانى للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامى . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطا من ديانات شتى ، على أثر إتصاله بالديانات والعقائد التى كانت سائدة فى بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء Parsces والمانوية والصابئة وغيرها) وذلك للتوفيق بينه وبين تلك الديانات المختلفة (وقد عرضنا لهذا فى صفحة ٤٣ — ص ٨٢،٧٥ من الترجمة) وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الاسلامى بين الناس بحماسة وحمية رغم هذا التغير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ويدافعون عنه باخلاص وغيرة . يدل على ذلك ما كان من الحكم بالاعدام على الكثيرين من الغلاة والمبتدعين منذ أيام على أبى بن طالب إلى عهد المنصور العباسى (حين أصبحت بغداد حاضرة البلاد الإسلامية) ، وذلك لجرأتهم على الابتداع فى الإسلام وإدخالهم فيه ما ليس منه . ففى الكوفة نشأ مذهب الكيسانية ؛ وكانوا يرون أن الدين طاعة رجل واحد ، وأن طاعة ذلك الرجل تعفيهم من الائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه ، ثم الهاشمية الذين فتحوا الباب على مصراعيه لكثير من الأفكار المضطربة والعقائد المتباينة . وقد ساعدهم على ذلك ما ذهبوا إليه من القول بالتأويل .

ولم يكن بد من أن يتأثر دعاة بنى هاشم ثم العباسيون الذين نشأوا فى هذه البيئة بتلك الروح غير الإسلامية . ومن ثم لم أتردد فى أن أنسب إلى دعاة أبى هاشم التشيع لعقيدة الهاشمية ، تلك العقيدة التى كانت — إذا لم أكن مخطئاً — عماد دعوتهم .

وأما الدعاة العباسيون فانا لا نعلم بالضبط كيف كانوا ينشرون دعوتهم .

فقد أمر النقباءُ الغلاةَ من الدعاة بأن لا يصرحوا باسم المدعو له [1] ، وأن يظل هذا الاسم سراً مكتوماً إلى أن تحين ساعة الخلاص من نير الأمويين ، على حين أن أخفوا عن المعتدلين منهم سر عقيدتهم . على أن هؤلاء الدعاة كانوا على الرغم من ذلك متطرفين مغالين يواجهون الموت فى سبيل دعوتهم بشجاعة تذكرنا بهؤلاء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل المذهب البابى ، تلك التضحية التى لا يمكن أن أعزوها إلا إلى ما تأصل فى نفوسهم من الاقتناع الدينى بصحة دعوتهم [2] .

وإلى القارىء هذه العبارة التى نقلها الطبرى عن المدائنى المؤرخ المتوفى سنة ٢١٥ هـ فإنها تمدنا بآراء سديدة [3] قال : « إن رجلا من الراوندية كان يقال له الأبلق وكان أبرص ، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية ، فزعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ثم الأئمة فى واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبى) ، وأنهم آلهة واستحلوا الحرمات . فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم « الحرمات » . فبلغ ذلك أسد بن عبد الله فقتلهم وصلبهم . فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم ، فعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون . [4]

(١) الطبرى ٢ : ١٩٨٨ (٣) .
(٢) أنظر مارواه الطبرى ٢ : ١٥٠١ وما يليها .
(٣) الطبرى ٣ : ٤١٨ .
(٤) Sejecta historiae Halebi, ed. Freytag, p. 15, Theophilos. ed. ,Boor, p. 430.
ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس القدرة على الطير فى الهواء حتى اليوم ، كما يعزى مثل ذلك أيضاً إلى بعض البوذيين (Bodhistattva) De Gobineau, Trois ans en Asie, P. 367 suiv.. Zeitschr. d. D. M. G, XLV, p. 590 n. 2.

وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر أنت أنت (يعنون أنت الله) » .

وعقيدة الراوندية جديرة بالبحث والدرس . ويمكن الرجوع إلى ما كتبه Herbelot ; Bidliotheca Oriesntali, i, v. فايل ج ٣ ص ٣٧ وما يليها ميللر ج ١ ص ٤٩٤ . ولاسيما وأن المعلومات التى نقلناها عن المصادر التى اعتمدنا عليها ليست وافية فيما يتعلق بعقيدة هؤلاء . وكل ما يهمنا فى هذا الموضوع هو أن المدائنى قد عزا إلى الدعاة العباسيين آراء وعقائد مماثلة لعقائد الراوندية ، إذ لا يشك فى أن هؤلاء الذين صلبهم أسد ابن عبدالله والى خراسان من دعاة العباسيين كانوا من الراوندية [1] .

وليس أدل على ذلك مما ذكره بعض المؤرخين عن ثالث الدعاة واسمه خِداش (من خدش بمعنى مزق بأظافره . وإنما سمى بذلك الاسم كناية عن تمزيقه الدين . وكان خداش يشتغل بصناعة الخزف بالحيرة (بالقرب من الكوفة) ؛ وكان مسيحياً ثم أسلم واشتغل بتدريس القرآن ثم انضم إلى الدعوة العباسية ، فبعثه داعى الدعاة بالكوفة إلى خراسان حيث أخذ يبث الدعوة لمحمد بن علىّ . ولم يلبث أن انصرف عن العباسيين وأخذ يذيع عن الإمام العباسى بعض العقائد الباطلة وينشر بين الناس عقائد الخرمية ويدعو إلى الاشتراكية مما أدى إلى قيام النفور بين الإمام (العباسى) والشيعة من أهل خراسان . وقد ظل ذلك حتى بعد موت خداش سنة ١١٨ هـ حيث أمر أسد بن عبد الله بقطع أطرافه ثم قتله [2] .

(١) أمر أسد بقتل بعض الدعاة العباسيين فى سنى ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٨
(٢) الطبرى ٢ : ١٥٨٨ .

وهذه الحوادث — رغم ما فيها من نقص — قد تجيز لنا بأن نعتبر خداشاً أحد هؤلاء الراوندية الذين عرض لهم المدائنى . على أن تلك المعلومات لا تكفى هى ولا ماذكره المدائنى لإبداء رأى قاطع عن حقيقة مذهب أولئك الدعاة من العباسيين . لذلك نكتفى بذكر بعض الملاحظات العامة عن هذا المذهب .

كان السنيون لا يفهمون شيئاً عن تلك الطوائف التى كانت تحاول الوصول من وراء الشعائر الدينية إلى حكمة جميع الشرائع وسرها ، إذ كانوا يعتبرونها أرقى وأرفع من تلك الظواهر الدينية ، وذلك لبغض أهل تلك الطوائف جميع الديانات السماوية لما كانت تثقلهم به (حسب زعمهم) من الواجبات وتفرضه عليهم من الفروض .

من ذلك مثلا ما رمى به السنيون أهل هذه الطوائف من محاولة تبرير ارتكاب المحرمات حين قال بعضهم إن أوامر القرآن ونواهيه لا قيمة لها فى نظر المؤمنين الذين أدركوا أسرار الدين ورأوا أنهم فى حل من الخروج عليها . ويرى بعض الباحثين أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقا من خُرم اسم لمدينة ببلاد ميديا[١] — أو كلمة خُرم ، ومعناها « لذيذ » . فإذا ما تكلمنا عن « خرم دينيا » Khorram—dinia فلكى نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً غير اللذة . ومن هنا يتبين لنا أن هذه الطوائف وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التى كانت لهن فى البلاد الشرقية وأباحت لهن الظهور فى المجتمعات الدينية[٢] ، فلم يكن ذلك إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن فى تلك المجتمعات .

---

(١) ميلرج ١ ص ٤٠٥ .

(٢) دى جويبنوج ١ ص٣٦١ دى ساسى ج ٢ ص ٣٩٧ وما يليها . بداوت : سنة بين الفرس ص ٢١٦ .

على أن ما ذهبت إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التى لا حد لها لم يكن العامل الوحيد فيما كان يكنه أهل السنة من البغض لهذه الطوائف ، وإن كنا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن ننكر أنه كان لغلو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف أثر كبير فى بغض السنيين لطائفة الخرمية[١] . يؤيد ما ذهبنا إليه هذه البحوث الجديدة التى قام بها مستر « براون » عن البابية ×

---

(١) Browne, II. p. 523

× أسس هذه الطائفة ببلاد الفرس سنة ١٨٤٤ — ١٨٤٥ م ميرزا على محمد الشيرازى ولما يناهز الخامسة والعشرين من عمره . وكان قبل أن يؤسس هذا المذهب أحد تلاميذ السيد كاظم من أهالى مدينة رشت وزعيم طائفة الشيوخ إحدى طوائف الشيعة الغالية . وتمتاز البابية من بين طوائف الشيعة بالقول بوجود واسطة بين الإمام الثانى عشر وأتباعه ؛ ويسمون هذه الواسطة «ركنى رابع» أو « الشيعى الكامل » وهو أحد الأبواب الأربعة التى يتصل الإمام عن طريقها بأتباعه أثناء غيبته الصغرى (٢٦٠ — ٣٢٨ هـ و ٨٧٤ — ٩٤٠ م) . لذلك سمى هذا المذهب «البابى» . ولم تكن تسميته بهذا الاسم راجعة إلى « باب الله » أو « باب الدين » كما زعم بعضهم أن ميرزا على محمد قد تلقب بهذا اللقب . على أن ميرزا هذا لم يلبث أن عدل عن هذا اللقب (باب) ولقب نفسه « نقطة » . فظل لقب باب شاغرا إلى أن تلقب به أحد تلاميذه حسين محمد من أهالى مدينة بشرويه ببلاد الفرس .

وفى سنة ١٨٦٣ م زعم ميرزا حسين على الملقب « بهاء الله » وأحد أتباع صبحى عزيل زعيم البابية فى ذلك الحين بأنه النبى المنتظر (من يظهره الله) ، فتبعه كثير من البابية على حين أن رفض عزيل وأتباعه القليلون الاعتراف بما ادعاه بهاء الله . ومنذ ذلك الوقت انقسمت البابية إلى طائفتين : العزيلية والبهائية . وقد بذلت الحكومة الفارسية المساعى لطرد البابية من بغداد ، فغادرتها إلى القسطنطينية ثم إلى أدرنة . وفى سنة ١٨٦٨ م اعتقل بهاء الله وأتباعه بعكاء فى سورية ، على حين أن نفى صبحى عزيل وأتباعه فى جزيرة قبرص ، فظل بها

فى بلاد الفرس[1] . ولم تدخر المصادر الفارسية التى يصح الاعتماد عليها فى هذا الموضوع وسعاً فى كيل التهم للبابيين بنفس الكيل الذى كان المسلمون فى صدر الاسلام يكيلون به تلك التهم نفسها لطائفة الخرمية ، ويزعم أصحاب هذه المصادر أن جميع البابيين كانوا لا يتقيدون بالشريعة الإسلامية ولا يدينون بها ، وأن كل شىء مشترك بينهم سواء فى ذلك الثروة أو النساء ، حتى تبسط مملكة « باب » سلطانها على العالم أجمع وتسن قوانين جديدة لتنظيم الحياة الروحية والزمنية[2] . وقد نشرت جريدة طهران اليومية الكثير من المقالات فى كفر البابيين وإلحادهم واتجاههم نحو الاشتراكية ، تلك الاشتراكية التى لم تكن إلا مظهراً جديداً للاشتراكية التى كانت سائدة فى أيام مزدك[3] .

حتى مات سنة ١٩٠٨ . وأما بهاء الله فقد مات بعكاء سنة ١٨٩٢ ، فخلفه ابنه عباس افندى الملقب بأبى البهاء .

وقد دب الانقسام بين طائفة البهائية على إثر قيام محمد على أحد أبناء بهاء الله الأربعة وادعائه الزعامة بعد أبيه . على أن عباس افندى لم يلبث أن انتصر على أخيه واستقل بالأمر دونه . وقد انتشرت البهائية فى أمريكا على يد إبراهيم جورج خير الله الذى بدأ يدعو لمحمد على البهائى فى مدينة شيكاغو . ولا يزال هناك فريق كبير يدين بالمذهب البهائى فى أمريكا إلى اليوم . ويرجع ذلك إلى ماقام به دعاة البهائية ، وعلى رأسهم ميرزا أبو الفضل ، لبث تعاليم هذا المذهب ودعوتهم إلى عباس افندى .

أ نظر دائرة المعارف البريطانية ثم ما كتبه كل من دى جوبينو ، براون .

The New History of the Bab (Cambridge., 1 893)

— المترجمان

(١) "The Babis of Persia" (J. R. A. S.), vol xxi, p. 881

"A Traveller, 'snarrative written to illustrate the edisode of the Bàb.'

(٢) Mirza Casim Beg, Le Journ. asiat. 1866 t. 1. p. 482.

(٣) لمعرفة مزدك والمزدكية أنظر Nôldeke

بيد أنه ليس ثمة ذكر مطلقاً لذلك الغلو الذى نحن بصدده فى كتب البابيين التى محصها مستر « براون » تمحيصاً تاما ، والتى تعد دراسة ممتعة ولا سيما فيما يتعلق بالنتائج التى وصل إليها . وإذا كان انصراف هؤلاء عن الاشتراكية يعتبر تحديا لها ، فمن البعيد جداً أن يحتم زعماء هذا الحزب على أتباعهم التمسك بتلك الاشتراكية باعتبارها قاعدة لا يمكن الخروج عليها . أضف إلى ذلك أنه لم يرد شىء مطلقاً عن تلك الاشتراكية فى كتبهم .

لذلك لا يجمل بنا أن نأخذ بكل ما يمدنا به المؤرخون من العرب على علاته عن طوائف الخرمية التى أتينا على ذكرها . وأما تلك النزعة التى كان يرميهم بها أهل السنة ، وهى إستباحة المحرمات ، فمنشؤها هذه الحالة النفسية المماثلة لتلك الحالة التى كانت مسيطرة وقتئذ على بعض الناس كجهم بن صفوان (أنظر ص ٣١ وما يليها ص ٦٥ من الترجمة) ، الذى لم يدخر أهل السنة وسعاً فى رميه بنفس تلك التهم[1] . على أن تلك النزعة لم تكن أكثر من كراهة للتمسك بالشعائر الدينية — ذلك التمسك الذى طالما كان يتخذ ذريعة لاضطهاد الشعوب الأجنبية — ثم بغض للظلم واحتقار لجمع الثروات بوسائل دنيئة . أما نظرية التجسد التى جمع الراوندية بينها وبين عقائدهم غير الإسلامية فقد حاولوا بها الخلط بين عقيدة السبئية (أنظر ص ٤٠ من الكتاب ، ص ٨٩ — ٩٠ من الترجمة) ومذهب الكيسانية الذى يقول أتباعه باستمرار النبوة . لذلك لا يبعد أن يكون خداش الخرمى هو أول من دعا لذلك المذهب الذى طالما كان يبشر به الباطنية (أنصار مذهب وحدة الوجود) ثم المصلحون من الفرس ، وهو مذهب تجسد الحكمة الإلهية فى شخص من الأشخاص . ومن ثم لم تقتصر النبوة عندهم على تلك الفترة القصيرة من الوحى ، وإنما هى — حسب زعمهم — حكمة خالدة لا يزال يشع نورها على الأرض ، سواء ظهرت فى شخص معين أو ظلت مختبئة فى مقرها الالهى .

---

(١) الطبرى ٢ : ١٥٨٥ (٩٩٨) .
Gesehichte der persser, und araber, p. 455 suiv,. 491

— ٦ —

انتقال الدعوة العباسية

من العراق إلى خراسان

وليس بعيداً أن يكون خداش قد دعا لنفسه بعد أن خرج على الدعوة العباسية وتخلص من قيودها ، وزعم أنه يحيط بالأسرار الألهية كما فعل غيره من الدعاة ، ثم أقام نفسه زعيما بعد أن كان داعياً فحسب يأتمر بأوامر رئيسه[١] . وهكذا تحقق الخطر الذى تنبأنا به من قبل ، وهو أن يسىء الدعاة استعمال ما علموه من أسرار الدعوة وأن يخونوا الأمانة التى حملوها فيدعون لأنفسهم جهاراً . وقد بينا أثر ذلك فيما سبق . وقد استطاع خداش أن يضم إليه بعض النقباء — ومن بينهم أحد أولاد سليمان بن كثير[٢] — ثم انقطعت الصلة بين الخراسانيين وداعى الدعاة فى العراق وظلت على ذلك حتى موت خداش .

على أن الدعوة العباسية لم تخمد رغم ما كان يحدق بها من الأخطار ، كما لم يكن للعقائد الشيعية الغالية — كالتى كان يدعو إليها خداش — أثر كبير فى نجاح تلك الدعوة . فان هذه العقائد لم تستطع أن تؤثر إلا فى بعض الدعاة ممن كانوا يعطفون عليها ويميلون إليها . وهذه العقائد ، وإن استطاعت وقتاً ما أن تفتن الجمهور بالوعود الخلابة والسعادة الأبدية ، فان عجزها عن أن تقنع العامة ثم دعوتها إلى مذهب الباطنية وقولها بوحدة الوجود قد ردها على أعقابها ورجع بها إلى ذلك الخمول الذى نشأت فيه .

وكان الخراسانيون الذين يختلفون إختلافا كبيراً عن أهل بلاد فارس الغربية (وهم أهل ميديا والعراق وبلاد الفرس نفسها) أقل نزوعاً إلى حياة

(١) نظر سيرة بعض أشياعه فى الذيل السادس من هذا الكتاب .

(٢) Opkomst der abbasiden, p. 40, n. 4.

الفكر والتأمل . ولا يزال منهم حتى اليوم عدد كبير من المسلمين المتحمسين لمذهب أهل السنة . أما كراهتهم للأمويين فانما كانت لحكمهم الظالم ونيرهم الذى لا يحتمل . كذلك لم يكن ميلهم إلى أهل البيت إلا رغبة فيما كانوا ينتظرونه على أيديهم من الحكم بالحق والعدل فى السيرة . لذلك كانوا لا يفضلون إماماً على آخر ، حتى إنهم قد رحبوا بالعباسيين وأخلصوا فى خدمتهم حين علموا آخر الأمر أن الخلافة لهم دون غيرهم من أهل البيت . وكان هؤلاء الدعاة الذين أوفدهم العباسيون من الكوفة لجذب أهل هذه البلاد إلى دعوتهم خطراً شديداً عليهم ؛ غير أنه لم يكن بد من استخدامهم أول الأمر . ومن ثم كان لزاماً على العباسيين أن يتلمسوا غيرهم ممن هم أكثر صلاحية وآمن جانباً ، ولا سيما بعد أن فرغوا من وضع أساس الدعوة لهم فى البلاد الإسلامية .

وقد ظفر العباسيون بهؤلاء من بين النقباء الذين كانوا يمثلون الحزب الخراسانى وعلى رأسهم سليمان بن كثير . لذلك وجب علينا أن نعنى بوجه خاص بدراسة ذلك الحزب الخراسانى . ويظهر لنا أنه كان ثمة فرق كبير بين هؤلاء النقباء وبين الدعاة من أهل العراق ، كما نرى فى الوقت نفسه أن عقيدة هؤلاء النقباء — وقد نشأوا فى خراسان وأقاموا على مقربة من مرو — لم تختلف فى شىء عن عقيدة السواد الأعظم من مواطنيهم ، وأن الدعاة من أهل العراق إنما كانوا يأتونهم من الناحية السياسية لا الدينية . فقد قال أحد الثوار من أهل اليمن للحارث بن سريج إنه لا يريد العمل إلا بكتاب الله . فصاح فى خطبة أحد النقباء : « لو كان صادقاً لأمددته ألف عنان »[١] .

وليس ثمة غلو أو إغراق فى تلك الكلمات . فقد صدرت من مسلم يرى فى كتاب الله المثل الأعلى للعدالة والحق . وكان أشياع الحارث بن سريج دون غيرهم يعرفون كيف يصبرون حتى تحين الفرصة ، كما أدركوا منذ اللحظة

(١) الطبرى ٢ : ١٩٣٠ .

الأولى أنه لا مناص لطرد الأمويين من جيش على أتمام الاستعداد للقتال فى أى لحظة . لذلك انضموا إلى هؤلاء الدعاة ودخلوا فى الدعوة العباسية طائعين ،

وقد اتبع بعض النقباء خداشاً حين جهر بالدعوة إلى مذهب الخرمية فى الوقت الذى ثار فيه السواد الأعظم منهم على هذا المذهب . ومنذ ذلك الحين ابتدأ هؤلاء يفهمون سياسة العباسيين وأنهم قد انخدعوا بدعوتهم . فقد أدركوا أن هذه الدعوة لم تقم فى الواقع إلا على البدع والعقائد التى لا تمت إلى الدين بأية صلة ، حتى إنهم لم يطمئنوا إلى احتجاج الإمام على مذهب الخرمية حين أرسل إليهم داعى الدعاة من بلاد العراق ليعلمهم أن خداشاً حمل شيعته على غير منهاجه » . ولم يضمهم الإمام (محمد بن علىّ) إلى صفوفه إلا بعد أن « بعث إليهم بعصى مضببة بعضها بالحديد وبعضها بالشبه » . فقدم بها بكير وجميع النقباء والشيعة ، ودفع إلى كل رجل منهم عصا ، فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فرجعوا وتابوا » (١) .

وقد روى لنا بعض المؤرخين (٢) خبر زيارة سليمان بن كثير للإمام سنة ١٢٠ هـ بعد سنتين من وفاة خداش . على أن أحداً من هؤلاء لم يذكر لنا شيئاً عن نتيجة تلك الزيارة ، اللهم إلا بعض عبارات عامة لا قيمة لها . وليس من الصعب علينا أن نتنبأ بأثر تلك الزيارة ، فقد ساد على إثرها السلم بين الخراسانيين وزعيم العباسيين .

ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع شيئاً عن الدعاة الذين كانوا يوفدون من العراق ، ولا سيما بعد أن اضطلع سليمان بن كثير (٣) بأعباء الدعوة ببلاد خراسان

(١) الطبرى ٢ : ١٩٤٠ .

(٢) Fragmenta hist, arab, p. 182

(٣) أنظر كتاب المقفى الكبير للمقريزى فى المكتبة الأهلية بباريس ورقة ٦٥ والذيل السادس من هذا الكتاب . كترمير : المجلة الأسيوية (١٨٣٥) ج ٢ ص ٣٣٦ .

وهكذا نجح الشيعة وحدهم من بين جميع الأحزاب المعادية لبنى أمية فى تقويض عرش الأمويين بفضل تلك الحركة التى قاموا بها لبث العقائد الشيعية بين المسلمين .

على أن الكوفة لم تعد تصلح لأن تكون مركزاً لتلك الحركة ، فقد كان أهلها خليطاً من عناصر مختلفة عرفوا بالتقلب فى الميول والأهواء .

أما أهل خراسان وإن كانوا أقل غلواً فقد كانوا أكثر حماسة للدعوة لآل البيت . وقد جدّ دعاة بنى العباس فى ضم الخراسانيين الذين عركتهم الحرب إلى الدعوة العباسية فى الوقت الذى احتدم فيه النزاع فى غير طائل بين المتطرفين من الشيعة وبين الخوارج فى بلاد العراق وميديا .

ولم يبق أمامنا الآن إلا أن نبحث عن ذلك الدافع الذى حمل هؤلاء على الخروج على بنى أمية فى الوقت الذى كان يزعم فيه الأمويون أنهم قد انتصروا على جميع أعدائهم .

لم يكن ذلك الدافع سوى عقيدة هؤلاء بالمهدى المنتظر .

الباب الثالث

الإسرائيليات ×

— ١ —

التنبؤ ببعض الأشخاص والحوادث المعينة

يجب أن لا يغرب عنا حين ندرس التاريخ الإسلامى بوجه خاص والشرق بوجه عام ، مبلغ تأثر الروح الشرقية بكل ماله علاقة بالتنبؤ وكشف حجب

× الاسرئيليات (Croyances Mcssianiques) نسبه إلى Messie . وهى مشتقة من اللاتينية Messias ، والسريانية Meshina بمعنى ممسوح ، ومن العبرية Mesha بمعنى المسح . والمراد المسح بالزيت المقدس ، وهو رمز لتتويج الملوك عند الإسرائيليين ومعنى هذه الكلمة المحرر أوالمخلص الذى بشر به الأنبياء بنى إسرائيل والذى عبده المسيحيون وألقو إليه بالمودة فى شخص المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. وقد تمسك الناس بهذه العقيدة منذ هبوط آدم عليه الصلاة والسلام. ويطلق الفرنجة كلمة Messise على كل شخص مصلح يتطلع إليه الناس وينتظرون ظهوره . وقد أطلقت التوراة هذه الكلمة قبل ظهور عيسى بن مريم إطلاقين مختلفين ، فأطلقتها بالمعنى العام على الملوك والأنبياء وكل من يبعثه الله برسالة من عنده، على حين أن أطلقتها بالمعنى الخاص على الرسول الذى يبعثه الله لتكفير خطايا البشر وإنقاذ بنى إسرائيل وتخليص العالم مما نزل به من الظلم والإضطهاد . وهكذا كان شعب الله المختار أول من دان بهذه العقيدة ، كما لا يزال ينتظر ظهور ذلك المخلص إلى اليوم . وقد ظل القرون الطويلة يحدوه ذلك الأمل الذى كان يشجعه على التمسك

الغيب عن المستقبل — قل ذلك التأثر أو كثر — ذلك التأثر الذى يهمنا أن نتتبع آثاره وإن كان من الصعب علينا تحديد مداه .

بأهداب تنبؤات الكثيرين من أنبياء بنى إسرائيل الذين ظلوا عشرين قرناً يبشرون بهذا المهدى ويتنبئون بذلك المخلص الذى تنتظره جميع الشعوب والأمم .

ويرى بنو إسرائيل أن فكرة المسيح قديمة درجت مع الإنسان منذ أيامه الأولى . ولا غرو فإنهم يزعمون أن الله قد بشرهم به ووعدهم إياه غداة اليوم الذى هبط فيه آدم من الجنة بعد أن غررت به الحية ووسوست إليه أن يأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها (سفر التكوين إصحاح ٣ آية ١٤، ١٥) . ويقول أنبياء بنى إسرائيل إن ذلك « المخلص » سيخرج من نسل إبراهام بن إسحاق بن يعقوب من قبيلة هوذا (سفر التكوين إصحاح ١٢ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧) وإنه سينتصر على قومه رغم بغضهم له وكراهتهم إياه ، وأنه سيشرع لهم من الدين مالم تأت به الشريعة الموسوية ، وانه يولد من امرأة عذراء ببيت لحم .

هذه هى عقيدة المسيح كما يدين بها الإسرائيليون : على أننا إذا دققنا البحث وجدنا أن تلك العقيدة كانت منتشرة بين جميع الشعوب والأمم . فقد ظهرت فى خرافة تيفون Typhon وهوروس Horus عند قدماء المصريين ، كما نجدها أيضا فى مذرا Mithra إحدى القصص الفارسية ، ثم فى كتب الصينيين القديمة ، وكذا فى عقائد الهنود ولا سيما ما يتعلق منها بتناسخ براهما . ولا تزال آثار تلك العقيدة باقية إلى اليوم بين أهالى شبه جزيرة اسكنديناوة وبين الوطنيين من بلاد المكسيك . ويقول فولتير « يرى الهنود والصينيون أن المسيح سيخرج من المغرب على حين أن يرى الغربيون أنه سيخرج من المشرق » .

ويطلق علماء المسلمين كلمة إسرائيليات على جميع العقائد غير الإسلامية ، ولا سيما تلك العقائد والأساطير التى دسها اليهود والنصارى فى الدين الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى .

أنظر لفظ Messie فى دائرة معارف لاروس ودائرة المعارف الفرنسية ،

وقد أفرد ابن خلدون فى « مقدمته » فصلين لدراسة هذا الموضوع يعتبران من أهم فصول هذا الكتاب [١] . ويكاد ابن خلدون أن يكون المؤرخ الشرقى الوحيد الذى أدرك أهمية هذا النوع من التنبؤ فى تاريخ الشرق ، كما كان أول من نعى عليه وشهَّر ببطلانه . وأما نحن معشر الغربيين فقد استرعت عقيدة المهدى — والمهدى المنتظر بوجه خاص — أنظار المستشرقين منا ، لما كان لها من الأثر فى سياسة الشرق حتى اليوم . ولا تزال بحوث مسيو دار مستيتر (M. Darmesteter) وسنوك هر جرنيه (Snouck Hurgronje) عن نظرية المهدى ذات أهمية تاريخية . etc. كبيرة [٢] وقد بين لنا مسيو دى غويه (De Goeje) فى كتابه Carmathes du Bahrain, مقدار ما كان لتلك التنبؤات من الأثر فى مجرى الحوادث فى القرن العاشر الهجرى (وبخاصة ما كان يقوم منها على بعض قواعد التنجيم [٣]) على حين لم يُعن غيره من المؤرخين بكشف هذه الناحية من نواحى التاريخ الإسلامى . وليس يحضرنى فى هذا الموضوع سوى هذه المعلومات القليلة التى خلفها لنا كل من مسيو دى ساسى (De Sacy)

ولفظ Messiah فى دائرة المعارف البريطانية ، ثم ما كتبه :
Drummond, The Jewish Messiah, Kuenen, Religion of Israel, chap. xii. Edersheim, Life and Times of Jesus the Messiah, 2 nd ed vol. I. pp. 160—179, vol. II. p. 434 seq.
— المترجمان .

(١) — Notices et Extraits, Tom. xvii. p. 142—201, t rad uction (ibd. xx) p. 158—237.

(٢) أنظر كتاب Le Mahdi depuis les origines de l' Islam jusqu, (المهدى منذ ظهور الإسلام حتى اليوم) â nos jours, Pasis, 1885 للأستاذ جيمس دارمستيتر (James Darmesteter) وكتاب Der Mahdi للأستاذ سنوك هرجرنية Snouck Hurgronje فى Separa — tabdruck ، Von der Revue coloniale Internationale, 1886

(٣) دى غويه : « القرامطة والفاطميون » ص ١١٥ وما يليها .

وكترمير (Quatremère) وفايل (Weil) ودوزى (Dozy) . وقد أفردت فى كتابى الذى كتبته عن اعتلاء العباسيين عرش الخلافة فصلا خاصاً لتلك التنبؤات التى كان يؤمن بها الناس والتى تأصلت فى نفوسهم ولا سيما فى عهد بنى أمية [١] . وقد مكننى ماقام به العلماء من البحوث من الإحاطة بما كان لتلك التنبؤات من الأثر فى سياسة الدولة الإسلامية فى ذلك الحين .

ويرجع كل ما ذكرته إلى تلك الطريقتين المختلفتين اللتين كانت نعالج بهما الأمور المستقبلة . ولم تكن هذه التنبؤات سوى تكهنات لا يكاد يعرف واضعها ، كما كانت تتعلق بوفاة بعض الأشخاص من ذوى المكانة والشهرة أو ببعض الحوادث الهامة . وإلى القارىء بعض الأمثلة من تلك التنبؤات :

كان المختار زعيم الشيعة يزعم أنه هو « ذلك الرجل من ثقيف الذى يفتح عليه بالمذار × فتح عظيم » . على أن تلك النبوءة قد صدقت فى الحجاج بن يوسف من نفس قبيلة ثقيف . فقد انتصر على أحد الثائرين ، وهو عبد الرحمن بن الأشعث [٢] . كذلك أبى الحسين بن على أن يذكى نار الثورة فى بلاد الحجاز ، وذلك لما أخبره به أبوه من « أن بها كبشاً يستحل حرمتها » ، وقال : لا أريد أن أكون ذلك الكبش [٣] . وقد ذكر الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى حين مات زيد بن على هذه النبوءة وهى أن شاة ستذبح بالعراق [٤] . وهناك نبوءة ثالثة وردت فى بعض الأحاديث عن الرسول طالما كان يتحدث بها الناس » والله إنك الأزرق قيس المذبوح

---

(١) Opkwomst, p. 132 suiv.

× مكان بين واسط والبصرة — أنظر معجم البلدان لياقوت .

(٢) الطبرى ٢ : ٧٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٧٦ .

(٤) المصدر نفسه ٢ : ٨٤٦ .

فيها كما تذبح الشاة »(١) . وقد تنبأ بعض المتنبئين للحارث بن سريج أنه سيموت تحت زيتونة أو شجرة غبيراء(٢) . وقد تحققت تلك النبوءة وجاءت كفلق الصبح . ومهر الأصبغ بن عبد العزيز أحد أمراء بنى أمية فى هذا النوع من التكهن بالغيب وكشف الأمور المستقبلة(٣) ، كما حذقت ابنته دحية نفس ذلك العلم . ولما رأى الأصبغ الشجّ فى وجه أخيه قال : « الله أكبر ! هذا أشج بنى مروان الذى يملك » .

ومما تجب ملاحظته أن هذه التنبؤات كانت متشابهة كما أن واضعيها إما من اليهود أو المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام(٤) :

وقد تنبأ أحد اليهود (رأس الجلوت) بموت الحسين (بن على) بالقرب من كربلاء(٥) ، كما تنبأ تُبيع ابن امرأة كعب الأحبار ـ وكان أبوه يهوديا ـ بموت عمرو بن سعيد(٦) .

وكان بجانب هذه التنبؤات المتفرقة كتب للتكهن والتنبؤ بالغيب . على أن هذه الكتب لم تكن معروفة عند العرب فى بادىء الأمر ، وإنما وصلت إليهم عن طريق اليهود والمسيحيين الذين كان يحتفظ بها أنبياؤهم من زمن بعيد ومن بين هذه الكتب ما كان يعزوه مؤلفه إلى بعض الأنبياء لتحوز شيئاً من ثقة الناس بها ، كما كان منها ما يحتوى على طائفة من الألغاز والأحاجى وما إلى ذلك من الكتب التى لم تكن إلا رموزاً غامضة وإشارات مبهمة .

(١) الطبرى ٣ : ١٦٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٩٣٤ .
(٣) كان عالما بخبر ما يكون . ابن قتيبه ـ كتاب المعارف ص ١٨٤ .
(Wiiseienfeld, Regeistr geneal. Tabel)
(٤) الطبرى ١ : ٢٤٠٣ و (٥) ٢٤١٠ (٢ وما يليه) .
(٥) المصدر نفسه ٢ : ٢٨٧ .
(٦) المصدر نفسه ٢ : ٧٨٦ .

وقد وصلت تلك التكهنات إلى العرب على أيدى القسيسين والرهبان والقبط واليهود وغيرهم ممن أخذوا على عاتقهم إذاعتها بين المسلمين .

وقد بنى الحجاج بن يوسف مدينة واسط على شاطىء نهر دجلة ، بعد أن ظل مدة طويلة يتخير مكانا ملائماً لبنائها ، حين رأى راهباً قد أخذ بيده بعض التراب وألقى به إلى النهر فى ذلك المكان . وقد قرأ ذلك الراهب فى كتبه أنه سيقام فى ذلك المكان الذى تبول فيه دابته مسجد يعبد فيه الله وتقام به الشعائر حتى تقوم الساعة(١) . ونجد فى هذه الكتب وما شاكلها أوصاف الأشخاص دون أسمائها أو أسماء الأشخاص دون أوصافها(٢)

وطالما رجع الخلفاء إلى تلك الكتب ليقفوا منها على مدة خلافتهم . من ذلك ما أخبر به أحد اليهود يزيد بن عبد الملك أنه سيظل فى الخلافة أربعين سنة ؛ فقال رجل من اليهود : « كذب لعنه الله ! إنما رأى أنه يملك أربعين قصبة ، والقصبة شهر فجعل الشهر سنة(٣) » .

وتسمى هذه المؤلفات بالكتب أو الكتب القديمة(٤) وهناك كتاب قديم يرجع تاريخه إلى القرن الأول الهجرى ، وهو كتاب دانيال ، ويشتمل على بعض التنبؤات ذكر فيها عمر اسم الدردوق ومن الأشج(٥) . وقد ذاعت كتب دانيال أو التنبؤات الدانيالية (إذا صح هذا التعبير) بعد ذلك بكثرة عظيمة . ومن هذه الكتب نسخ عديدة بمكتبة المتحف البريطانى ومكتبات فينا وجوته (Gotha) والإسكوريال . على أنه ليس من بين تلك الكتب ما يرجع تاريخه إلى القرن الأول الهجرى .

(١) الطبرى ٢ : ١١٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ٢ : ١١٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٤٦٤ .
(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٤٧ . الطبرى ٣ : ٢٥ .
(٥) ابن قتيبة ص ١٨٤ . دردوق كلمة من أصل أرمنى .

وقد سارت كتب دانيال فى الذيوع والانتشار بين الناس جنباً لجنب مع كتب الجفر التى اشتق اسمها من كتاب للتنبؤات كُتب على جلد بعير (جفر) ويعزى ذلك الكتاب إلى آل البيت وبخاصة إلى على ثم إلى حفيده جعفر ابن محمد الصادق (١) .

وأما كتب الملاحم ، وهى أشعار تتضمن بعض التنبؤات عن الحوادث المستقبلة ، فيرجع تاريخها إلى القرن الأول الهجرى . وقد اضطرب الأمر فى خراسان اضطرابا شديداً بعد وفاة زيد بن على (فى خلافة هشام بن عبد الملك) . « ولما قتل زيد تحركت الشيعة بخراسان ... وظهر الدعاة ورؤيت المنامات وتدورست كتب الملاحم » (٢) . وكلمة ملحمة معناها فى الأصل معركة أو موقعة (٣) (وبالعبرية ملحمة) . وقد لاحظت فى بعض العبارات التى وقفت عليها أنها تستعمل كناية عن حادثة خطيرة لامناص من وقوعها، (٤) كما شاع استعمالها أيضاً فى الحوادث المستقبلة ثم فى العقائد التى يُتنبأ فيها عن خبر ما سيكون . وكانت الأكثر شيوعا فى كتب الملاحم هى الرمز للأشخاص بحرف واحد . من ذلك « ق » سيقتل « م » بمعاونة « ج » ؛ ثم يأتى « ش » فينتصر انتصاراً حاسماً وهكذا . وفى عهد آخر الخلفاء الأمويين (مروان بن محمد) كانت تجرى على الألسن تلك النبوءة : « ع » بن « ع » بن

(١) مقدمة ابن خلدون . ترجمة De Slane ص ٢١٤ وما يليها .
ومما نشك فيه كثيراً إطلاق اسم الحيوان على اسم جلده ؛ ولا يبعد أن تكون كلمة (جفر) من أصل أجنبى (قبطى أو يونانى) . ويغلب على الظن أنها من أصل يونانى) .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) الطبرى ١ : ٢٦٥١ (٤) ، ٣ : ٢١٣٢ .

(٤) ملحمة كتبت علىّ . الطبرى ٢ : ٦٠٧ (٨) ، وابن هشام (طبعة وستنفلد) ص ٨١٦ (١٥) ، واليعقوبى ج ٢ ص ٢١٥ ، Fragm. hist. arab. 561 .

« ع » سيقتل « م » بن « م » . وقد أوّل الناس هذا باسم الخليفة الأموى مروان بن محمد بن مروان وعبد الله بن على بن عبد الله العباسى (١) .

— ٢ —

التنبؤ بمصير العالم

لم يبق أمامنا — بعد أن عرضنا فى الفصل المتقدم لتلك التنبؤات المتعلقة بأشخاص أو حوادث معينة — إلا أن نتكلم عن طائفة أخرى من التنبؤات لم تكن أقل أثراً من سابقتها ، وهى التنبؤ بمصير العالم ونهايته .

ترجع هذه التنبؤات إلى أصل يهودى أو مسيحى ، إلا أنها لم تلبث أن صبغت بالصبغة العربية فى القرن الأول الهجرى . وقد شاع هذا النوع من التنبؤ فى الأمة الإسلامية عن طريق كتب التنبؤات أو عن طريق الأحاديث التى وضعها اليهود والمسيحيون أو التى لا يخلو إسنادها من بعض اليهود أو المسيحيين ممن دخلوا الإسلام . وترجع شهرة كل من وهب بن منبه وتميم الدارى وكعب الأحبار وتخليد التاريخ لأسمائهم إلى هذا النوع من الرجم بالغيب . وقد روى لنا المقريزى إحدى الملح عن كعب ، نستطيع أن نتبين منها المصادر التى كانوا يستمدون منها هذه المعلومات ، كما تبين لنا أيضاً احتقار بعض الناس لهذا النوع من التكهن وسخريتهم به . فقد سافر كعب مع محمد بن أبى حذيفة × فى سفينة واحدة ، فسأله ابن أبى حذيفة ساخراً « هل هذا السفر مذكور عندكم فى التوراة ؟ » : ولكن كعباً لم يعيى جواباً عن هذا السؤال وأجاب : « إنى أجد عندنا فى التوراة أن شابا أشعر

(١) De Sacy, Chrestomathie (2 me èd.) tome II. p. 298 suiv. , Journ. Asiat. , 1860, p. 134, Dozy, Supplèment, s. v. الطبرى ٢ : ١٩٠٣ ، ٣ : ٢٥ . المسعودى ج ٦ ص ١٠٨ .

× فى الأصل محمد بن حذيفة . والصحيح محمد بن أبى حذيفة — المترجمان

يضرب حتى يموت كما يموت الحمار وأخاف أن لا يكون أنت »[1] .

وتنبؤ القرآن بمصير العالم مشهور ؛ وأظهر ما يكون هذا فى تنبؤه بقرب الساعة (يوم الحساب) . وقد عرف هذا النوع من التنبؤ عند المسيحيين قبل ظهور الإسلام . على أنه لم يرد فى القرآن شىء عن رجعة المسيح أو ظهور المهدى وكذا المسيخ (الدجال) ولا عن تلك الاضطرابات والفتن التى تسبق قيام الساعة ، وإنما ورد هذا فى كتب السنة ؛ ثم لم يلبث هذا النوع من التنبؤ والرجم بالغيب × أن أصبح جزءاً من العقائد الإسلامية ولا سيما فى عهد بنى أمية . ولم تقف هذه التنبؤات عند هذا الحد ؛ فقد شغلت الأذهان بقدر ماشغل التنبؤ بقيام الساعة أفكار الصحابة فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويطلق العرب كلمة الهرْج على تلك الفتن التى يطلق عليها اللاهوت الربانى كلمة مَشْيخْ (Kheblé-ham-Machiakh) . وتدل هذه الكلمة عادة على الضجة والاضطراب . وقد وردت فى السنة بمعنى القتل ، وهو نفس المعنى الذى يدل عليه ذلك اللفظ فى اللغة العبرية « هِرِج » (hereg) : فإذا جاء

(١) أنظر لفظ محمد بن أبى حذيفة فى كتاب المقفى الكبير للمقريزى (مخطوط ليدن) .

لم نستطع الرجوع إلى الأصل ؛ ولذلك لم نجد بدا من ترجمة هذه العبارة عن النص الفرنسى .

× لم يكن ما جاء به القرآن الكريم فى هذا من قبيل التكهن أو الرجم بالغيب كما ذهب إليه « فان فلوتن) ، وإنما هو قول كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه نزل به الروح الأمين (جبريل عليه السلام) على قلب النبى صلى الله عليه وسلم . قال تعالى (إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) سورة الحاقة آية ٤٠ — ٤٦ . — المترجمان .

لفظ الهرَج فى حديث من الأحاديث فمعناه القتل كما هو عند الأثيوبيين (أو الحبش[1]) . ومن البديهى أن كلمة هرج مأخوذة عن العبرية دون الأثيوبية ، إذ ليس فى الأثيوبية هذا المصدر « ﻫ . ر . ج » .

ويمكننا أن نقف على مقدار ما كان للتنبؤ بالهرج من الأثر من قول الزبير (حين أبى أهل البصرة أن ينضموا إليه ضد علىّ بن أبى طالب) : « إن هذه للفتنة التى كنا نحدَّث عنها »[2] : على أن هناك من الأدلة ماهو أوضح مما تقدم . فمن بين الأحاديث التى رواها البخارى وأبو داود وغيرهما من المحدثين فى كتاب الفتن حديث نوه فيه الرسول بأولئك الذين سيلتزمون الحيدة فى تلك الحروب الداخلية التى سوف تضطرم نارها . من ذلك قول النبى (صلى الله عليه وسلم)[3] : « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . من تشرَّف لها تستشرفه . فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذبه . وهاك حديثاً آخر من هذا النوع[4] : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعَف × الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » .

وقد ورد هذا الحديث بروايات مختلفة فى كتاب الطبقات لابن سعد[5] . من ذلك قوله : « قدم المختار بن أبى عبيد الكوفة ، فهرب منه وجوه

(١) صحيح البخارى (طبعة مصر سنة ١٣٠٤ ﻫ) ج ٤ ص ١٥٩ .
(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ١٧٨ .
(٣) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٦٠ .
(٤) أبو داود (طبعة مصر سنه ١٢٨٠ ﻫ) ج ٢ ص ١٣٣ (س ٢٣) ، والبخارى ج ٤ ص ١٦١ ، ج ٢ ص ١٩٩ .
× جمع شعفة وهى قمة الجبل .
(٥) كتاب الطبقات .

أهل الكوفة . فقدموا علينا البصرة وفيهم موسى بن طلحة بن عبيد الله (أحد أصحاب الرسول) . وكان الناس يرونه فى زمانه هو المهدى . قال (خالد ابن سمير) فغشيهم ناس من الناس وغشيته فيمن غشيه ، فإذا شيخ طويل السكوت قليل الكلام طويل الحزن والكآبة ، إلى أن قال يوماً : « والله لأن أكون أعلم أنها فتنة لها انقضاء أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا وأعظم الخطر . فقال رجل من القوم : ياأبا محمد ! ما الذى ترهب وأشدّ أن تكون فتنة ؟ قال : أرهب الهرج . قال : وما الهرج ؟ قال الذى كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّثون ، القتل بين يدى الساعة لا يستقر الناس على إمام حتى تقوم الساعة عليهم . وهو كذلك وأيم الله لئن كان هذا لوددت أنى على رأس جبل لا أسمع لكم صوتا ولا أرى لكم داعياً حتى يأتينى داعى أبى »

أما المسيح الدجال Antichrist الذى يسميه العرب الدجال (أنظر البخارى ج ٤ ص ٧٦) فهو من أصل آرامى .

(daggolai mechikhe Hexapl. Dan, Xlv, 20 mechikhé daggolè Mat. , XXlv. 24)

ولم ينص القرآن على ذلك الدجال ولم يعينه . إلا أنه قد ورد فى السنة اسم لرجل يهودى من أهل المدينة ، هو صاف بن صائد أو ابن الصياد ، صرح النبى بأنه هو الدجال . ومن ثم نبذه المسلمون ؛ فلم يكلمه ولم يخالطه أحد [١] . وقد سمى المتوكل الليثى [٢] أحد الشعراء المعاصرين المختار بالدجال

---

(١) Sprenger, Das Leben und die Lehre des Muhammah, 111. 92, n. 31.

تاج العروس ج ٢ ص ٤٠٢ ، أبو داود ج ٢ ص ١٤٠ ، الترمذى ج ٢ ص ٩٣ وما يليها ، صحيح مسلم (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٠ هـ) ج ٢ ص ٣٧٧ وما يليها ، صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٥٦٥ ، ٢٥٦٦ ، الأغانى ج ١٩ ص ٢٥ .
ويتبين مما ذكره الطبرى (١ : ٢٥٦٥ — ٢٥٦٦ وصاحب الأغانى) (ج ١٩ ص ٢٥) أنه كان شخصا تاريخيا .

(٢) الطبرى ٢ : ٦٨٦ ، أبو داود ج ٢ ص ١٤٠ .

فى إحدى قصائده ، وأخبر أحد اليهود من أهالى سورية عمرَ بن الخطاب بأن الدجال سيخرج من قبيلة بنيامين وأن العرب سيقتلونه على باب لدّ [١] .

ولما وصل المسلمون إلى مدينة نهاوند صاح الرهبان والقسس على الأسوار : « يامعشر العرب ! لا تعنّوا فإنه لا يفتحها إلا الدجال أو قوم معهم الدجال » وقد دخل العرب المدينة بمعاونة صاف بن صائد الذى كان يقاتل فى صفوف المسلمين وكانوا يسمونه الدجال [٢] . ولما اختفى صاف فى موقعة الحرة (٦٣ هـ) ، ذلك الاختفاء الذى لا يزال الناس يعتبرونه سراً غامضاً ، تلمس العرب خلفاً له . ولما كان الدجال أعور العين اليمنى ، كان للعور من هذا النوع حظ كبير فى ذلك المضمار [٣] . وكان ابراهيم بن عبد الله بن مطيع أعور العين اليمنى . وقد أراد يوما أن يمزح فى حضرة هشام بن عبد الملك مع أمير الكوفة ، فقال هذا : « مولاى ! لولا ما أخاف من غضبه عليك وعلىّ وعلى المسلمين لأجبته . قال : وما تخاف من غضبه ؟ قال : بلغنى أن الدجال يخرج من غضبة يغضبها » [٤] .

ولما كان ما ذكرته كافياً للتدليل على انتشار تلك العقيدة ، لم أرد أن أثقل على القارىء بذكر جميع القصص والملح التى كانت شائعة عن الدجال فى القرن الأول الهجرى . على أنى لا أجد بداً من أن أضيف تلك النبوءة إلى ما تقدم فقد قابل محمد بن اسحاق (+ ١٥١ هـ) أنس بن مالك وعليه عمامة سوداء ، ومن ورائه جمع من الصبية يصيحون : « هذا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يلقى الدجال » [٥] .

---

(١) الطبرى ١ : ٢٤٠٣ .

(٢) الطبرى ١ : ٢٥٦٥ .

(٣) الأغانى ج ٨ ص ٣٥ ، زهر الآداب (بهامش العقد) ج ١ ص ٣٢٠ .

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٩ . أنظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٧٤ وما يليها .

(٥) ابن خلكان (طبعة وستنفلد) رقم ٦٢٣ ص ٨ .

— ٣ —

رجعة عيسى بن مريم وظهور الدجال

من المحتمل جداً أن النبوءة برجعة عيسى بن مريم قد شاعت وانتشرت بين المسلمين فى نفس الوقت الذى انتشر فيه التنبؤ بظهور الدجال[١] ، ولو أن هذا لم يرد إلا فى السنة النبوية فحسب . ولو جاز لنا أن نعتمد على القصص والملح التاريخية فى التدليل على صحة هذه النظرية لاستطعنا أن نحكم بأن نفوس المسلمين فى الصدر الأول للإسلام كانت أقل ميلا إلى الاعتقاد برجعة المسيح منها بظهور الدجال .

ولئن صح هذا الاستنتاج كان ذلك راجعاً إلى ما امتازت به العقلية العربية التى استطاعت أن تصف من كان يطلق عليهم اسم « المسيح » بصفة المسيح المخلِّص وأن تسند إليهم ما يقوم به المسيح نفسه (من الهداية) . وإلى القارىء تلك العبارة التى وجهها رسول من قبل أمير خراسان إلى زعيم اليمانيين من العرب : « أيها الأعور ! لعلك أنت ذلك الأعور الذى ستهلك على يديه مضر » . من هذا يتبين لنا أن الأمر كان يتعلق بنبوءة تؤول إلى هلاك قبيلة مضر على يد رجل أعور ، تلك النبوءة التى ليست إلا انصباغا لقصة الدجال بالصبغة العربية ثم تطبيقها تطبيقاً دقيقاً على الشئون السياسية العربية فى ذلك الحين . لهذا كانوا يمثلون الدجال برجل أعور .

كذلك كان الحال فيما يختص برجعة المسيح عيسى بن مريم . فقد تنبأ الناس بأن « السفيانى » هو المسيح ، ذلك المخلص الذى كان ينتظره أشياع بنى أمية وأنصارهم . وليس بعيداً أن يكون خالد بن يزيد بن معاذ قد ابتدع

---

(١) أبو داود ج ٢ ص ١٣٨ وما يليها . والترمذى ج ٢ ص ٣٦ .

نبوءة السفيانى هذه ، على ماجاء فى كتاب الأغانى[١] ، ليحفظ التوازن بين بطون البيت الأموى ، وليلين من شكيمة الأسرة الحاكمة ، أسرة بنى مروان (من سلالة حرب ابن عم أبى سفيان) . وقد ظهر أحد أولاد سفيان من سلالة خالد هذا (وزعم أنه السفيانى المنتظر) وانضم إليه كثير من الأنصار والأشياع فى آخر خلافة بنى أمية . وقد وقفنا على تلك المحاولات العقيمة التى قام بها كثير من « بنى سفيان »[٢] من حين إلى حين .

أما اليمانيون فقد عقدوا كل آمالهم على القحطانى (المنتظر) ، وهو أحد الأمراء من سلالة قحطان[٣] . وذكر المسعودى أن عبد الرحمن بن الأشعث أدعى أنه ذلك القحطانى المنتظر[٤] . وقد أطلقت بنت سهم فى إحدى قصائدها على الأشعث هذا اسم « المنصور عبد الرحمن »[٥] . وهكذا كان المنصور هو المسيح المنتظر الذى كان ينتظره عرب الجنوب ليعيد الملك فيهم[٦] .

---

(١) ج ١ ص ٨٨ .

(٢) أبو المحاسن ج ١ ص ٢٤٦ ، الطبرى ٣ : ٥٣ (س ١٤) ، ٨٣٠ ، Freytag Historiae Selecta , Snouck Hurgronje, II. p. 11 Holebi, p. 12 suiv

(٣) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٦٧ (شرح) .

(٤) كتاب التنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة دى غوية) ص ٣١٤ . « خلع عبد المالك باصطخر فارس ، وخلعه الناس جميعاً ، وسمى بنفسه ناصر المؤمنين . وذكر أنه القحطانى الذى ينتظره اليمانية ، وأنه يعيد الملك فيها . فقيل إنما القحطانى على ثلاثه أحرف . فقال اسمى عبد ، وأما الرحمان (كذا) فليس من اسمى » .

(٥) كتاب الأنساب للبلاذرى (طبعة Ahlwardt) ص ٣٣٤ .

(٦) Miiller, Die Burgen und Schlôsser Siid-Arabiens, I p. 75 suiv.
وقد ألف المؤرخ أبو مخنف كتابا فى السنة عنوانه ياحميرا أو موت عبد الرحمن ابن الأشعث به الكثير من المعلومات عن هذا الموضوع (كتاب الفهرست طبعة Flûgel ص ٩٣ .

وبينما كان اليمانيون ينتظرون القحطان كان المضريون يعتقدون بالتميمى الذى لم نقف إلا على إسمه فقط وينتظرون ظهوره . وهناك أيضاً بعض النبوءات بكلبى منتظر ، وهو زعيم يزعمون أنه سيخرج من بنى كلب إحدى القبائل التمانية .

وأما المسيح (المخلص) عند الشيعة فهو معروف مشهور وكان يلقب بالمهدى ، ذلك اللقب الذى كان فى بادىء الأمر أحد ألقاب الشرف ، فلم يلبث أن أصبح رمزاً لذلك المنقذ المنتظر من آل البيت « الذى سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوْراً وظلماً » .

ومن الجلى أن الاعتقاد بظهور المهدى وانتظاره لم يقتصر بادىء الأمر على آل البيت وحدهم ، بل بدأ ذلك الاعتقاد يذاع وينتشر بين المسلمين على حسب إزدياد نفوذ الشيعة وانتشاره[1] .

وقد انتشرت فكرة المهدى المنتظر لدى أهل السنة حتى محت ذكر غيره من المهديين مما كان يتنبأ بهم مثل السفيانى والقحطانى وغيرهما . ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً من نفوس المسلمين ، وإنما صار هؤلاء بالنسبة إلى المهدى المنتظر كالدجال بالنسبة إلى عيسى بن مريم . لذلك كان من المعقول أن يظهر عليهم ذلك المهدى ويهزمهم هزيمة حاسمة وينتصر عليهم انتصاراً مبيناً .

— ٤ —

عقيدة المهدى وأثرها فى سقوط الدولة الأموية

كان البون شاسعاً بين تلك السعادة التى كان ينشدها الناس على يد المهدى

(١) ذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلا من موسى بن طلحة وعمر ابن عبد العزيز بالمهدى . أنظر الذيل الخامس .

المنتظر وتلك الآلام التى كانوا يعانونها فى ذلك الحين حيث الحروب الأهلية التى أذكى نارها انقسام خلفاء بنى أمية على أنفسهم ، والتى كانت تلهب لظاها تلك الأحن والأحقاد القديمة بين مضر وقحطان ؛ تلك الحروب التى خرَّبت بلاد الشام حيث اندلع لهيبها أول الأمر ، ثم تطاير شظاها إلى غيرها من الولايات الإسلامية .

وقد ساد الاضطراب فى كل أنحاء الدولة الأموية واستولى على العرب مرة ثانية ذلك الميل إلى الحرب والكفاح ، فرفع الشيعة والخوارج رءوسهم . وظلت الحاميات السورية وحدها على ولائها للعرش الأموى ، على حين أن كان المرابطون من الجنود العربية يشايعون أعداء الحكومة ، حتى كادت تلك الفتن أن تأتى على ذلك التراث الذى خلفه النبى (صلى الله عليه وسلم) وتودى بذلك الإصلاح الذى قام به كل من أبى بكر وعمر . وهكذا كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤما بالمستقبل . وقد وصف لنا هذه الحالة السيئة الحارث بن عبدالله الجعدى الشاعر فى هذه الأبيات :

أبيتُ أرعى النجوم مرتفقاً[1]   إذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة[2]   قد عم أهلَ الصلاة شاملها
مَنْ بخراسانَ والعراق ومن   بالشام كلٌّ شجاه[3] شاغلها
فالناس منهم فى لون مظلمة   دهماء ملتجَّة[4] غياطلها[5]
يمسى السفيهُ الذى يُعنَّف بالـ   جهلِ سواءً فيها وعاقلها

(١) المرتفق الواقف الثابت . والمراد منها السهر .
(٢) مجللة : شاملة . وما بعدها يفسرها .
(٣) شجاه : حزنه وطربه .
(٤) الملتجة من العيون الشديدة السواد .
(٥) والغيطلة (بفتح الغين والطاء) الظلمه المتراكمة .

والناس فى كربةٍ يكاد لهـا تَنبـذُ أولادها حواملهـا
يَغدون منها فى كل مُبهمةٍ عميـاء تمنى [١] لهم غوائلهـا
لا ينظر الناسُ فى عواقبها إلا التى لا يبين قائلهـا
كرغوة البِـكر [٢] أو كصيحة جُدْ لى طرقت حولهـا قوابلها
فجاء فينا أزرى [٣] بوجهتها فيهـا خطوبٌ حمر زلازلها [٤]

وكذلك تصف لنا هذه الأبيات التى نظمها عباس بن الوليد حرج الدولة الأموية وما وصل إليه الأمويين من يأس وقنوط :

إنى أعيـذُكُمُ بالله من فتن مثل الجبـال تسامَى ثم تندفعُ
إن البرية قـد ملت سياستـكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمنّ [٥] ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرنّ بأيديكم بطونـكم فثَمّ لا حسرة تغنى ولا جزع [٦]

وهكذا نرى إلى أى حد تطور الرأى العام نحو الأمويين . ولقد صدق أبو العباس حين قال لبنى أمية : « إن البرية قد ملت سياستكم » .

ولا غرو فقد بدأ عامة الناس يدركون أنه ليس ثمة صلاح من وراء ذلك النظام الفاسد الذى سنّه الخفاء الأمويون ، وأن بقاء ذلك النظام لا معنى له سوى ضياع الإسلام .

هل كان الناس يعتقدون إزاء تلك الحالة السيئة بقرب ظهور المهدى (المخلص) ؟ كل ذلك ممكن ؛ بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان العزاء

(١) تمنى بمعنى تقدر .
(٢) البـكر ولد الناقة .
(٣) بمعنى عاب .
(٤) الطبرى ٢ : ١٨٥٧ .
(٥) لا تطمعوا .
(٦) المصدر نفسه ٢ : ١٧٨٨ .

الوحيد للتقاة من المسلمين (أهل السنة) . ومع ذلك فلا ندهش إذا رأينا نبوءة أخرى تشغل الأذهان فى ذلك الحين ؛ فقد كان لزاماً هدم تلك الأطلال البالية لـكى يقوم صرح السعادة على أساس متين . لذلك كان من الضرورى ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتى عليه ليعبد السبيل لذلك المهدى المنتظر . وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هى نبوءة الرجل ذى الأعلام السود الذى يخرج من المشرق ويزيل عرش بنى أميـة (أنظر الـكامل للمبرد ص ٥٨٥ والطبرى ٢ : ١٩٢٩ وما يليها) .

وقد يتساءل الانسان عن سبب وجود هذه الأعلام السوداء .

كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين ؛ فاتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم حداداً على الشهداء من آل البيت الذين ذهبوا ضحيـة استبداد الحـكومة الأموية وقسوتها [١] . على أنه لا يبعد أن يكون الأمويون قد اتخذوا البياض شعاراً لهم بعد أن قامت الدولة العباسية ، وبعد أن اتخذ الخلفاء العباسيون السواد شعاراً لهم [٢] . وأما أن السواد كان شعاراً للحزن

(١) أنظر ما كتبه : Hamaker , Rèflexions crirtiques I, 829, p. 8 suiv , De Sacy , Chrestomathie arabe, 2 è ed. I. 48 Suiv. II. 29, suiv. , Weil , Geschichte der Khalifen, II. 216, n. 3, Opkomst dsr Abbasiden, p. 137 suiv. للوقوف على هذه الألوان التى اتخذت شعاراً لأسباب سياسية .

(٢) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤٤ (النسخة العربية) ٥١ (الترجمة) . وقد اقتبس مسيو فون كريمر عبارة عن الأغانى (ج ٦ ص ١٤١) مؤداها أن الخليفة الوليد كان يصلى فى «ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة» وأن الأمويين كان شعارهم البياض . وبالرغم من أن البياض هو رمز النظافة — على ما يظهر — فلدينا من النصوص التاريخية ما يدل على أن الأمويين لم يقتصروا على الثياب البيض . فقد كانت العمامة السوداء شعارهم الرسمى .

والحداد فقد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إلى الملابس السوداء (الملابس الرسمية فى عهد العباسيين) ، لا سيما وأن الروايات التاريخية تؤيد ذلك [١] .

أما الألوية السود فلم تكن يوما ما شارة للحداد . فقد اتخذ الحارث ابن سريج اللواء الأسود شعاراً له حين ثار على بنى أميـة سنة ١١٦ هـ وكذا بهلول الخارجى سنة ١١٩ ، ثم أبو حمزة الخارجى أيضاً سنة ١٢٨ [٢] . على أن أحـد من هؤلاء لم يكن فى حداد على أحد من آل البيت . ونستطيع أن نتبين السر الحقيقى فى اتخاذ اللواء الأسود من قصيدة الكميت الشاعر التى وجهها إلى الحارث بن سريج فى سنة ١١٧ هـ ، والتى نكتفى منها بهذا البيت :

وإلا فارفعوا الرايات سوداً   على أهل الضلالة والتعدى

(الطبرى ٢ : ١٥٧٤) × .

ومن هنا يتبين لنا أن هناك علاقة بين الألوية السود ومحاربة الضـلالة (والمراد بها هنا الضلالة على حسب مافى القرآن) والعدوان (والمراد به الخروج على القانون الإلهى) وهذا يبين لنا معنى هذه المسألة التى أشار إليها هماكر (Hamaker) وهى أن الألوية المذكورة تمثل لواء الرسول الذى كان يحمله فى حروبه مع الكفار ذلك اللواء الذى اتفقت جميع المصادر التى اعتمدنا عليها أنه كان أسود [٣] .

الطبرى ٢ : ٢٥٨ (س ١٦) العقد الفريد ج ١ ص ٤٢ . الأغانى ج ١٩ ص ٦٠ ، الطبرى ١ : ٢١٤٨ .

(١) دى ساسى . ج ١ ص ٥١ نقلا عن الدينورى (طبعة Girgass) ص ٢٤٠ ، الطبرى ٢ : ١٩٧٢ . ٣٠ : ٥٠٦ ، والأنساب للبلاذرى Z. d. D. M. G. XXXVIII , 394

(٢) الطبرى ٢ : ١٥٧٠ و ١٦٢٤ و ١٩٨١ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٥ .

× الصحيح ٢ : ١٥٧٥ — المترجم .

(٣) Mouradja d' Ohsson, Tableau de l' Empire ottoman, I. 290 suiv. ، كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١١٩ ، وفتوح البلدان للبلاذرى

ولهذا كان الخوارج ينشرون الألوية السود فى حروبهم مع الأمويين كما كان يفعل ابن سُرَيج ؛ فقد كانوا جميعاً يحاربون الضلالة والجور قبل كل شىء وكان هذا اللواء الأسود يذكرهم بعهد الرسول ، ذلك العهد الذى كانوا يعتبرونه المثل الأعلى للكمال .

ومن ثم كان لزاما على من يبشر بالمهدى الإمام الحق ، أو بعبارة أدق الإمام الذى يزول على يديه سلطان بنى أمية ، أن يتخذ تلك الألوية السود شعاراً له . وفى سـنة ١٢٨ هـ إدعى الحارث بن سريج أنه ذلك المهـدى المنتظر [١] . على أن دعوته هذه لم تصادف شيئاً من النجاح . فقد ظلت الحكومة ، أو بالأخرى العرب اليمانية ، صاحبة النصر والظفر . بيد أن ذلك الأمل الذى كان الحارث أول من بعثه فى النفوس لم يخب بعد ، كما كان العامل الوحيـد الذى جذب إلى الدعوة العباسية جميع هؤلاء الذين كانوا يشاطرون الحارث ميوله وآراءه السياسية . وليس بعيـداً أن يكون الحارث ابن سريج قد اعتمد فى دعوته هذه على هذا الحديث المشهور الذى رواه أبوداود « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حرَّاث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطىء أو يمكِّن لآل محمد كما مكّنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وجب على كلٍّ نصره » . ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح نبوءة من تلك النبوءات التى وردت فى كتب التكهن [٢] .

ص ١١٢ ، اليعقوبى (طبعة هوتسما) ج ٢ ص ١٥١ ، الدينورى (طبعة Giegan) ص ١٨٦ وكتاب الوفا (ليدن . Cod) ورقة ١٤٤ ومايليها . هذا هو اللواء الأسود الذى كان يحمله هذين (Hothain) لعلى بن أبى طالب فى موقعة صفين . الكامل للمبرد ص ٤٣٦ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ١٢٣ ، ٢٨٧ .

(١) الطبرى ٢ : ١٩١٩ .

(٢) كتاب السنن لأبى داود ج ٢ ص ١٣٥ ومقدمة ابن خلدون . الجزء الثانى . ترجمة ص ١٦٧ ، الدر المنتظم (1252 ليدن Cod) وقة ١٣٢ .

— ٥ —

قيام الدولة العباسية

وفى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١٢٩ هـ نشر أبو مسلم الخراسانى، الذى تولى أمر الدعوة العباسية بعد سليمان بن كثير ، اللواء الأسود على ربوع سفيذنج ، وهى قرية صغيرة من ضواحى مرو . وقد كتب على هذا اللواء تلك الآية من القرآن (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا) — سورة الحج آية ٣٩ .

وقد ضم أبو مسلم إلى لقبه « صاحب الألوية السود » أمراً آخر ليس بأقل أهمية من ذلك ، وهو شرف الانتساب إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ولم تكن الحال فى خراسان لتساعد على انتشار الثورة بمثل تلك السرعة نعم ! كان الموالى من سكان القرى يفدون من كل جانب وراء الدعاة العباسيين كما ثار المسوِّدة فى جميع أنحاء بلاد خراسان : فى نسا وبلخ وهراة ومَرورُوذ ، وفى الجملة فى كل ناحية قامت فيها الدعوة لبنى العباس ، ولكن بعد الشقة بين هذه النواحى قد حال دون توحيد وجهة الثائرين . على أن هناك سبباً آخر ، وهو أن العرب — حتى من خرج منهم على الحكومة الأموية وشق عصا طاعتها — قد أبوا أن يشتركوا أول الأمر مع أولئك الموالى ممن لا نسب لهم . ولا غرو فقد كانوا يعتبرونهم أعداء ألداء للإسلام ، كما كان يقول عنهم نصر بن سيار إنهم أموات فى نظر العرب احتقاراً وسخرية بهم .

وترجع قوة المسوِّدة إلى حماسهم الشديد وإخلاصهم للدعوة لآل البيت إذ كانوا يعتبرونها رمز أمانيهم السياسية . وكان صفوة جند أبى مسلم من الكفِّية أو أهل الكف ، وهم الذين يأخذون أرزاقهم من القمح

بالكفة (الحفنة) . وهناك تفسير آخر لكلمة الكفية ؛ ذلك أنهم بايعوا على أن لا يأخذوا مالا وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها يبتغون الجنة مقابل هذا الكف[1] (ويبدو لى هذا التفسير الأخير خيراً من التفسير الأول) . كذلك أقسموا أن لا يطلبوا فدية أو رهنية بدون إذن من رؤسائهم . وقد ذهبوا فى طاعة رؤسائهم إلى أبعد من ذلك . فكانوا لا يقتلون الأعداء الذين يظفرون بهم فى ميدان القتال إلا بإذنهم[2] .

أما العرب فكانت تعوزهم العاطفة الوطنية . وقد حاولوا غير مرة أن يتحدوا ضد هذا العدو المشترك لولا أن حال أبو مسلم بدسائسه دون ذلك . ولا غرو فقد كان كلٌّ لا يعنيه سوى مصلحته الخاصة أو بالأحرى مصلحة قبيلته . وأما الإخلاص للعرش الأموى فلم يعن به أحد ، حتى إن اليمانية من أهل مرو — إذا صح لنا أن نأخذ بما ذكره اليعقوبى — قد انضموا إلى الشيعة[3] واعتنقوا مبادئهم . ولم يبق على ولائه للبيت الأموى فى ذلك العصر المتلىء بالأنانية والخيانة والغدر إلا نصر بن سيار . وقد ألح بدون جدوى فى طلب المدد من الخليفة . ولا غرو فقد كان مروان الثانى فى حاجة شديدة إلى آخر جندى من جنوده . ولذلك رد عليه الخليفة بقوله : «احفظ ناحيتك بجهدك » ، فدهش نصر وقال : « أأيقاظ أمية أم نيام ؟» × .

---

(١) وقد سماهم الطبرى (٢ : ١٩٥٧) (٤) ، ٣ : ٨٤٨ (١٥) الكفلية . والصحيح الكفية . وكذلك كتب المقريزى فى مخطوطة المقفى الكبير (المكتبة الأهلية بباريس ورقة ١٨٠ ب) عبارة شائقة أتيت على ذكرها فى الذيل السادس .

(٢) الطبرى ٢ : ١٩٨٩ .

(٣) اليعقوبى (طبعة هوتسما) ج ٢ ص ٣٩٩ (س ١٦ وما يليه) ، ٤٠٨

× ذكر الطبرى (٢ : ١٩٤١ — ١٩٤٩) والمسعودى (مروج الذهب طبعة القاهرة ج ٢ ص ١٤٤) أن قول نصر بن سيار : « أأيقاظ أمية أم نيام »

وقد عرف أبو مسلم ، بما أوتيه من الحذق والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذى ساد فى هذه البلاد . فبذر بذور الشقاق بين جنود بنى أمية ، كما استطاع أن يرابط بجنده سبعة أشهر بظاهر مدينة مرو ، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه . وبذلك تمكن من الاستيلاء على خراسان دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة . ولم يكد يتم له النفوذ فى هذه البلاد حتى عمل على التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة فقتلهم عن آخرهم .

عندئذ عمت الثورة وانتهت بزوال الدولة الأموية . وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة الدينورى ، عله يتبين منه حال الأمة العربية فى ذلك الحين [1] قال : « وانجفل الناس على أبى مسلم : من هراة وبوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وختلان وكش ونسف ، فتوافوا جميعاً مسودى الثياب . وقد سوّدوا أنصاف الخشب التى كانت معهم وسموها كافر كوبات [2] وأقبلوا فرسانا وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها هرّ مروان ، يسمونها لمروان بن محمد . وكانوا زهاء مائة ألف رجل » .

ولن نعرض هنا لوصف تلك الدولة الأموية فى ساعات احتضارها ، ولا

كان قبل أن يصل إليه كتاب الخليفة الأموى يأمره فيه بأن يحفظ ناحيته بجهده — المترجمان .

(١) الدينورى ص ٣٦٠ .

(٢) أنظر الأغانى (ج ٥ ص ١٢٣) فى معنى كلمة كافر (incredule) : وقد قال أبو مسلم لمستهل بن الكميت : « أبوك الذى كفر بعد إسلامه » ، فقد استهل الكميت بعض قصائده بالاشادة بذكر الهاشميين ، ثم لم يلبث أن أفاض فى مدح بنى أمية . فكلمة كافر كوبات إنما كان يطلقها المسلمون على أنصار بنى أمية . أنظر « كافر كوبات » عند الترك فى Biblioth. Yeog. IV. 278

لتلك الانتصارات المتتابعة للجيوش الخراسانية . وقد ندهش لتلك الهزائم التى أنزلتها تلك الجيوش بأمهر القواد الأمويين ، لو لم نعلم أن مقاومة تلك الأمة المحتضرة لم تصدر عن وطنية صادقة أو قوة معنوية صحيحة أثارها اليأس فى قلوبهم فى ساعتهم الأخيرة ، ولا عن أية عاطفة قوامها الشعور بوجود نظام ثابت . فضلا عن أن الظفر الذى أحرزته الجيوش العباسية — ذلك الظفر الذى لم يكن إلا قضاء من الله باستئصال شأفة أولئك الأمويين وزوال دولتهم — قد أضعف ما كان لديهم من الاستماتة فى الدفاع عن دولتهم [1] .

هذه هى حال بنى أمية فى ذلك الحين وما كان يستولى على نفوسهم من يأس وقنوط . وأما غيرهم من أهل الولايات الإسلامية الأخرى فكانوا على العكس من ذلك . فقد انبعث فى نفوسهم الأمل بالميثاق لفجر المساواة والعدل ، ولا سيما فى تلك الولايات التى كان الولاة والعمال يستغلونها لأنفسهم مدفوعين بعوامل الشراهة والجشع مستعينين فى ذلك بما تطرق إلى نظم الإدارة من خلل وفساد ، وهكذا فتنت تلك الأمنية الجميلة هؤلاء الدهماء من الفرس الذين لم يعرفوا من الإسلام حتى ذلك الحين سوى دفع الجزية وجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وهكذا « انتقل دين المجوسية عن الدهاقين وأسلموا أيام أبى مسلم » [2] .

على أن ذلك الأمل كان أشد ما يكون فى نفوس الخرمية (وهم المتطرفون من دعاة مذهب توحيد الآراء فى الفلسفة) . ولا غرو فقد تعقب الولاة الأمويون أصحاب هذه العقيدة دون أن يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . ومن ثم كان يعتقد هؤلاء أن لا خلاص لهم إلا بزوال الدولة الأموية . لذلك

---

(١) Fragmenta Hist. arab. p. 211

(٢) أنظر ما كتبه فون روزن (Von Rosen) عن أبى طاهر فى Memoires de la Sociète russe d' archèologie III, l. p. 146-192 (tirè â part p. 10 n. I)

لا تدهش إذا رأيناهم يبادرون إلى الانضمام إلى أبى مسلم والانضواء تحت لواء ذلك الرجل الشديد الذى لا تعرف ملاذ الحياة إلى نفسه سبيلا . فقد كان الشخص الوحيد الذى صادف عنده هؤلاء البائسون عطفاً على مذهبهم وكان الكثيرون يعتبرونه وحده الإمام الحق [١] . بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فزعموا أنه « أشيدربامى (Ochederbami) أو « أشيدرما » (Ochederma) أحد أعقاب زردشت الذى ينتظر المجوس ظهوره كما ينتظر المسلمون ظهور المهدى [٢] ، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبى مسلم بل كانوا ينتظرون رجعته ليملأ الأرض عدلا ، على حين أن حول بعض أشياعه الامامة إلى ابنته فاطمة [٣] . وقد فر رجل يدعى أبا اسحاق الترك إلى بلاد ما وراء النهر بعد موت أبى مسلم ونصب نفسه داعياً له وزعم أن « مولاه » (أبا مسلم) اختفى بمدينة الرى ، ثم زعم أنه نبى أرسله زردشت وأنه لا يزال حياً . ولا يزالون ينتظرون عودته إلى اليوم لينشر دين زردشت ويرفع لواءه [٤] .

— ٦ —

خاتمة

وبعد عام من فتح مدينة مرو (١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢) استهل أبو العباس عبد الله المهدى [٥] أول خلفاء بنى العباس خلافته بخطبة ألقاها بجامع الكوفة .

---

(١) الشهرستانى ص ١١٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المسعودى (طبعة دى غويه) ج ٦ ص ١٨٦ .
(٤) الفهرست ص ٣٤٤ .
(٥) كتاب التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣٣٨ .

وقد نوه فى هذه الخطبة بتلك الآمال التى بعثها فى النفوس اعتلاء تلك الأسرة الجديدة عرش الخلافة . وسنبين فى الفصل الأخير من هذا الكتاب إلى أى حد تحققت هذه الأمانى وصحت تلك الأحلام .

ولا يفوتنا أن نذكر أولا أن ذلك المثل الأعلى للعدالة والمساواة قد ظل وهماً من الأوهام ، حتى أن حاجة الشرقيين اليوم إلى مهدى يملأ الأرض عدلا لم تكن أقل منها فى عهد بنى أمية .

ولم يكن جور النظام العباسى وعسفه منذ قيام الدولة العباسية بأقل من النظام الأموى المختل حفزاً للنفوس إلى التمسك بعقيدة المهدى والتطلع إلى ظهوره لتخليصها من قسوة ذلك النظام الجديد وجوره . وتذكرنا شراهة المنصور والرشيد والمأمون وجشعهم وجور أولاد على بن عيسى وعبثهم بأموال المسلمين بزمن الحجاج وهشام ويوسف بن عمر الثقفى ولدينا البراهين الكثيرة على فجيعة الناس فى هذا العرش الجديد ومقدار انخداعهم به . من ذلك قول شريك الذى ثار ببخارى فى خلافة أبى العباس السفاح [١] « ما على هذا اتبعنا آل محمد : على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق » .

كذلك الاضطرابات المستمرة فى الجزء الشرقى للدولة العباسية (كخروج المقنع) وثورات الخوارج المتوالية ، وخروج يوسف البرم الذى لم يكن غرضه سوى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . أضف إلى ذلك خروج رافع بن الليث لسوء سياسة على بن عيسى . كل ذلك يبين لنا أن ما كان يشكو منه المسلمون من الجور والعسف لم يزل على ما كان عليه فى عهد بنى أمية الأول . وهكذا لم يكن أبو العطاء الشاعر وحده الذى نعى على ذلك النظام إذ يقول :

ياليت جَورَ بنى مروان عاد لنا   ياليت عدل بنى العباس فى النار [٢]

---

(١) الطبرى ٣ : ٧٤ .
(٢) الأغانى ج ١٦ ص ٨٤ .

وأما أشياع العلويين الذين كانوا يطمعون فى إسناد الخلافة إلى آل على فقد خابت آمالهم خيبة كبيرة . ولا غرو فان العلويين لم يلقوا من الاضطهاد مثل ما لقوا فى عهد الأولين من خلفاء بنى العباس .

وقد قال الحسن بن الحسن بن على يوماً لابن أخيه محمد بن عبد الله بن الحسن : « لم تبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ماتريد » ؟ فقال : « والله ياعم لقد كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا . فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم ، وإن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر (المنصور) »[1] .

على أن هذا لن يحملنا على الجور فى الحكم على ذلك النظام الجديد . فإن الخلافة العباسية ، وإن كانت تعوزها تلك الصفات التى نعى عليهم محمد ابن عبد الله العلوى حرمانهم منها ، فقد أنجبت الكثيرين من الخلفاء الذين أثاروا إعجاب التاريخ بما فطروا عليه من النظام وحب العلم كالمنصور والمأمون .

وليس هذا كل ماكانت تمتاز به الدولة العباسية . فإن اعتلاء العباسيين عرش الخلافة ، وإن لم يحقق ذلك المثل الأعلى للعدل والمساواة الذى كان بنشده الناس ، فليس معنى هذا أن الحال قد ظلت كما كانت عليه أيام بنى أمية . نعم ! كان لا يزال هناك الشىء الكثير من الظلم والجور . ولكن لم يكن قوامه ذلك التنافر الشديد بين طبقات الأمة المختلفة ، الذى كان عماد النظام الادارى القديم فى عهد بنى أمية . فلم نعد نرى طبقة المحاربين ذات الامتيازات الكثيرة فى ناحية ، ثم طبقة الزراع المضطهدين فى ناحية أخرى . وبذلك أصبح الدين — دون الجنس — المرجع الوحيد فى تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية ثم بين أفراد الشعب ، بعد أن فقد أهمية ذلك الاختلاف فى الجنس بين طبقات الأمة المختلفة من العرب وغيرهم من الشعوب المحكومة . وكانت الحكومة لا تدخر وسعاً فى القضاء على الجيوش

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٠٦ .

العربية أو إقصائها عن البلاد إذا ما أبت النزول عن امتيازاتها القديمة التى كانت لها فى عهد بنى أمية .[1] وقد ساعد امتزاج العناصر المتباينة على ظهور نظم جديدة (كما كان الحال فى العراق مثلا) : فقد حل محل النظام الذى سنه عمر بن الخطاب ، ذلك النظام الذى يقضى باعفاء العرب من دفع الجزية باعتبارهم حماة الاسلام ، نظام جديد لا يفرق بين العرب والفرس فى خدمة الحكومة ويفرض للجميع على السواء مرتبات معينة ، على الرغم من بقاء ذلك النظام القديم وعدم الغائه صراحة .

ومنذ ذلك الحين أصبح الخراسانيون من الإيرانيين أو النصف إيرانيين أشد الناس ولاء لذلك العرش الجديد . كذلك رفع رءوسهم الموالى المضطهدون الذين كانوا السبب فى سقوط الدولة الأموية وأسندت إليهم المناصب الهامة فى قصر الخليفة وفى الجيش والمالية ، كما أسندت إليهم إمارة الولايات الإسلامية . حتى حسدهم العرب وقد أصبحوا أقل شأناً منهم[2] . أما الحروب التى كانت تستعر نارها بين القبائل والتى كانت إحدى الأدواء المتأصلة فى نفوس العرب ، فقد خبت جذوتها منذ ذلك الوقت وأخذت تنكمش شيئاً فشيئاً حتى انحصرت فى البلاد العربية الأصلية (مثل سورية وشبه جزيرة العرب)

وهكذا لم يصادف فى سبيله اندماج الجنس الحاكم بالأجناس المحكومة آية عقبة ، ذلك الاندماج الذى بدأ منذ خلافة بنى أمية ولم يحل دون

(١) اليعقوبى كتاب البلدان (طبعة دى غوية) ص ٢٨٥ (س ٦ وما يليه) .

(٢) الأغانى ج ١٨ ص ١٤٨ ، ج ١٢ ص ١٧٦ . قصيدة هجائية ترجمها فون كريمر فى كتابه Streifziige, p. 3t suiv. وقد قرأ الأستاذ فون كريمر لفظ « تبنانين » فى البيت الأول خطأ وصحتها تبانين (جمع تبان) اللباس الخاص بالموالى . الأغانى ج ١٥ ص ٢١ والجواليقى (طبعة سخاو) ص ٦٧ .

إتمامه سوى أولئك العرب الخلص لما كانوا يستمتعون به من حقوق وامتيازات خاصة .

وقد ساعد قيام تلك الحكومة الجديدة على ظهور تلك النهضة الفكرية التى تناولت جميع العالم الإسلامى ، والتى لم تلبث أن فاضت على الإنسانية كافة دون أن تقتصر على الدولة الإسلامية فى الشرق .

تذييل

— ١ —

الشئون المالية فى خراسان وإصلاحات نصر بن سيَّار

(أنظر ص ٢١) (ص ٥٠ من الترجمة)

من الصعب جداً أن يقف المؤرخ على رأى صحيح فيما يتعلق بالضرائب بخراسان فى عهد العرب . وقد ذكرنا قبل أن الجزية أو خراج الجزية (وهى الضريبة التى كان يدفعها الكفار) كانت جزءاً من تلك الضريبة التى كان يدفعها أهل خراسان للعرب ليكفُّوا عن قتالهم . من ذلك مافعله مهويه مرزبان مرو . فقد أبرم مع علىّ بن أبى طالب معاهدة تعهد فيها بأن يدفع له الدهاقين والأسوار والدهسلار (ثلاث طبقات من أصحاب الضياع) الجزية (البلاذرى — فتوح البلدان ص ٤٠٨ وما يليها) . كذلك لم يكف العرب عن قتال أهل هراة إلا بعد أن تعهد لهم أميرها بأن يدفع إليهم الجزية « وأن يقسم ذلك على الآرضين عدلا بينهم » .

على أنه كان هناك فى عهد نصر بن سيار (٧٢٠ — ٧٣٠ م) خراج آخر غير الجزية وغير ذلك المقدار الذى نص عليه فى معاهدة الصلح . يتبين ذلك من الخطبة التى ألقاها نصر بن سيار يوم الجمعة بالمسجد بعد أن عاد من غزواته بنواحى بلخ وبلاد ما وراء النهر والتى نقلها بنصها عن الطبرى (٢ : ١٦٨٨) :

« ألا إن بهرامسيس كان مانح المجوس يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين . ألا إن إشبداد بن جريجور كان مانح النصارى . ألا إن عقيبة اليهودى كان مانح اليهود يفعل ذلك . ألا إنى مانح المسلمين أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين . ألا إنه لا يقبل منى إلا توفىّ الخراج على ما كتب ورفع . وقد استعملت عليكم منصور بن عمر بن أبى الخرقاء وأمرته

بالعدل عليكم . فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه فى خراجه وخفف مثل ذلك عن المشركين ، فليرفع ذلك إلى منصور بن عمر ، يحوله عن المسلم إلى المشرك » .

ولم يكد يمضى على ذلك أسبوع واحد حتى وفد على نصر بن سيار ثلاثون ألف مسلم ممن كانوا يدفعون الجزية وثمانون ألف رجل من الكفار ممن أعفو منها ، فضرب نصر الجزية على الكفار وأعفى منها المسلمين . ثم كتب نصر قائمة للخراج وفق هذا النظام الجديد « ثم وظف الوظيفه التى جرى عليها الصلح » . وقد بلغ خراج مرو فى عهد الأمويين مائة ألف درهم سوى ما كانت تغله عليهم ضريبة الأرض .

ويتضح لنا من تلك العبارة إنه كان بمرو ضريبة عقارية (الخراج) بجانب ضريبة الرءوس (الجزية) ، وهى جزء من تلك الضريبة التى نص عليها فى عهد الصلح . ولا غرو فقد فرق نصر (بكلمة أو) بين المسلمين الذين ضربت عليهم الجزية وغيرهم ممن فرض عليهم الخراج .

ويمكن تفسير هذا إذا اعتبرنا أن الجزية (ضريبة الرءوس) التى كان يدفعها الكفار قد تحولت إلى خراج (ضريبة عقارية) على إثر تحول هؤلاء إلى الإسلام . على أن هناك أمراً آخر من الغرابة بمكان ، وهو إعفاء ثمانين ألف من الكفار من الجزية التى كانت الحكومة لا تألو جهداً فى جبايتها منهم . ويمكن تعليل هذا بأن الكثيرين من غير المسلمين قد استطاعوا — بمعاونة أشياعهم فى الدين — أن يتحولوا من جزية الرءوس إلى ضريبة أخرى عقارية (خراج) ، هذه الضريبة التى كانت ـ بلا ريب ـ أخف احتمالا من الجزية . على أن هنالا فرضاً آخر لتعليل ذلك ، وهو أن الأرض التى تركها بعض الموالى (المسلمون من غير العرب) فراراً من ظلم بنى أمية قد منحت إلى غيرهم ممن آثروا البقاء على دفع الخراج عنها .

ويفسر لنا اعتناق الكثيرين للاسلام نقص خراج مرو الذى بلغ ٢ر٢٠٠ر٠٠٠ درهم على إثر الصلح الذى أبرمه حاتم بن نعمان (على ما رواه البلاذرى ص ٤٠٥ والطبرى ١ : ٢٨٨٨) (أو ١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ٢٠٠ر٠٠٠ جريب من القمح والشعير أو ١ر٢٠٠ر٠٠٠ مثقالا من الفضة على ما رواه غيرهما من المؤرخين) .

— ٢ —

الأمويون يمثلون الجماعة الإسلامية

(أنظر ص ٣٥) (ص ٧٠ من الترجمة)

يقول الشهرستانى (ص١٠٣س١٤ ومايليه) : « والذين اعتزلوا إلى جانب فلم يكونوا مع على رضى الله عنه فى حروبه ولا مع خصومه وقالوا لا ندخل فى غمار الفتنة من الصحابة : عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصارى وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قيس بن أبى حازم كنت مع على فى جميع أحواله وحروبه حتى قال يوم صفين : انفروا إلى بقية الأحزاب انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله وأنتم تقولون صدق الله ورسوله فعرفت إيش كان يعتقد فى الجماعة فاعتزلت عنه » .

يقول حمزة الأصفهانى (طبعة Gottwaldt) ص ٢٤٧ ومايليها : وصوروهم (يريد صوَر الأمويون العلويين) عند أعتام عرب الشام بصورة الخوارج على أئمة العدل وقرروا عندهم أنهم شقوا العصا وأخرجوا أيديهم من الجماعة وحاولوا انتزاع الإمامة من إمام وليعهد إمام (لعلها ولى عهد) طامعين فى أن يغصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم حتى مال عليهم

أولئك الأعتام باللعن والإفتراء وقالوا هم تبًّا لكم من معشر مفارقين للسنة والجماعة عاصين لخليفة الله ثم غبروا قريباً من مائة سنة يحذرون الناس ناحيتهم يبغضونهم إلى النفوس وينهون عن ملابستهم والاختلاط بهم حتى أتاح الله لهم منير الظلمة أبا مسلم صاحب الدولة فطهر منهم البلاد ونجى متهم العباد » .

ويتبين لنا من مقارنة هذه العبارة بالتى قبلها أن رأى حمزة فى الأمويين وعواطفه المعتدلة نحوهم واعتباره إياهم ممثلين لجماعة المسلمين ، إنما يرجع إلى عاطفة وطنية طبيعية ، وأن الكثيرين من المسلمين فى القرن الأول الهجرى كانوا يشاطرون قيس بن أبى حازم رأيه فى هؤلاء الأمويين . أنظر ما ذكره صاحب الأغانى (ج ٦ ص ١٤١) فى أول الذيل الثالث ، ثم الذيل الخامس (فيما يتعلق بموسى بن طلحة) .

— ٣ —

أسباب ثورة أهل إفريقية

الطبرى ١ : ٢٨١٥

(أنظر ص ١١ ، ٣٧) (ص ٣٢ — ٣٣ ، ٧٢ — ٧٣ من الترجمة)

كان أهل إفريقية أكثر الولايات الإسلامية طاعة وخضوعاً لبنى أمية حتى خلافة هشام (بن عبد الملك) ، حيث اندس بينهم بعض الدعاة[1] الذين وفدوا عليهم من العراق ودفعوهم إلى الثورة ، فقطعوا أواصر الصلة التى كانت تربطهم بدار الخلافة ، ولا يزالوا على ذلك إلى اليوم × . وإلى القارىء سبب هذا الانفصال :

(١) يحتمل أن يكون هؤلاء من الخوارج . أنظر بالمحاسن (طبعة Juynboll ج ١ ص ٣١٩ ، ٣٢٦)

× ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ أى قبل إعلان الجمهورية التركية وزوال الخلافة سنة ١٩٢٣ .

طالما كان يرد هؤلاء البربر على الداعين إلى الفتنة من دعاة العباسيين بقولهم : « إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ولا نحل ذلك عليهم . فقالوا لهم إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم لا نقبل ذلك حتى نبورهم (؟) . فخرج ميسرة فى بضعة عشر إنساناً حتى يقدم على هشام فطلبوا الإذن فصعب عليهم . فأتوا الأبرش فقالوا أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به ، فقلنا هو أخلص لجهادنا لأنا لا نأخذ منه شيئاً ، إن كان لنا فهم منه فى حل ، وإن لم يكن لنا لم نرده . وقالوا إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده ، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد فى الجهاد ومثلكم كفى اخوانه ، فوفيناهم بأنفسنا وكفيناكم .

« ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة فى جلد ، فقلنا ما أيسر هذا لأمير المؤمنين ، فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك .

« ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا هذا ليس فى كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون . فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا . قال : (الابرش) نفعل . فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم فى رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا هذه أسماؤنا وأنسابنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه .

ثم كان وجههم إلى إفريقية ، فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشاماً الخبر وسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم ، فإذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا » .

دوزى : تاريخ المسلمين فى أسبانيا ج ١ ص ٣٤ وما يليها .

— ٤ —

الخوارج فى عهد الأخيرين من خلفاء بني أمية

(أنظر ص ٣٧) (ص ٧٢ ، ٧٣ من الترجمة)

وإلى القارىء طرفا من هذه الخطبة التى خطبها فى مسجد المدينة ، أبو حمزة الخارجى من بلاد اليمن عله يتبين منها ميول هؤلاء المنشقين ووجهة نظرهم .

الطبرى ٢ : ٢٠٠٩ ، والأغانى ٢٠ ص ١٠٤ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ١٩٠)

« أتعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ، ولا عبثاً ولا لهواً ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثأر قديم نيل منا . ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت ، وعنف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، فأجبنا داعى الله . (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) . (القرآن الكريم سورة ٢٦ آية ٣١) .

« فأقبلنا معه قبائل شتى ، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافا واحداً ، قليلون مستضعفون فى الأرض . فآوانا الله وآيدنا بنصره ، وأصبحنا والله بنعمته إخوانا .

« ثم لقينا رجالكم بقديد ، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان . فشتان لعمر الله ما بين الغى والرشد : ثم أقبلوا يهرعون يزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه ، وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق . فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون . . . .

« يا أهل المدينة ! من زعم أن الله تعالى كلف نفساً فوق طاقتها أو سأل عما لم يؤتها ، فهو لله عدو ولنا حرب . يا أهل المدينة ! أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله فى كتابه على القوى على حبه للضعيف ؛ فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذ جميعها لنفسه مكابراً محارباً لربه . ما تقولون فيمن عاونه على فعله ؟ .

« يا أهل المدينة ! بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى : قلتم هم شباب أحداث وأعراب حفاة . ويلكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحداثاً شبابا ؛ شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضية عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم . قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت . فقد خلطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم . . . . ! »

« ولنأت أيضاً بما نقله صاحب الأغانى (ج ٢٠ ص ١٠٦) عن الخلفاء الراشدين ثم الأمويين :

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه ما يأتى ويذر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم وقد أدى الذى عليه ، لم يدعكم من أمركم فى شبهة . ثم قام من بعده أبو بكر ، فأخذ بسنته وقاتل أهل الردة ، وشمر فى أمر الله حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ومغفرته ! ثم ولى بعده عمر ، فأخذ بسنة صاحبيه وجند الأجناد ومصر الأمصار وجبى الفيىء فقسمه بين أهله ، وشمر عن ساقه وحسر عن ذراعه وضرب فى الخمر ثمانين . وقام فى شهر رمضان ، وغزا العدو فى بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ! ثم ولى من بعده عثمان بن عفان ، فعمل فى ست سنين بسنة صاحبيه ، ثم

أحدث أحداثا ، أبطل آخرتها أولاها ، واضطرب حبل الدين بعدها ، فطلبها كل امرىء لنفسه ، وأسر كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك .

« ثم ولى على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ومضى . ثم ولى معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه ، وجِلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، وبغى دينه عوجا ودغلا ، وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله ، فعل الله به وفعل ! ثم ولى بعده ابنه يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد الصيود ويزيد القرود ، فخالف القرآن واتبع الكهان ونادم القرد وعمل بما يشتهيه ، حتى مضى على ذلك ، لعنه الله وفعل به وفعل ! ثم ولى مروان بن الحكم طريد لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وابن لعينه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

« ثم تداولها بنو مروان بعده أهل بيت اللعنة ، طردا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من اللقطاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان . فأكلوا مال الله أكلا ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر . فيالها أمة ما أضيعها وأضعفها ، والحمد لله رب العالمين !

« ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون . وقد ولى منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يكد ، وعجز عن الذى أظهره حتى مضى لسبيله ، ولم يذكره بخير ولا شر . ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شىء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده ولم يؤانس رُشده ، وقد قال الله عز وجل (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) (القرآن الكريم سورة ٢ آية ٥) ، فأمر أمة محمد فى أحكامها ودمائها أعظم من ذلك

كله ، وإن كان ذلك عند الله عظيما . . . . يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام ، يلبس بردتين قد حيكتا له وقوّمتا على أهلهما بألف دينار وأكثر وأقل ، قد أخذت من غير حلها وصرفت فى غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار وحلقت فيها الأشعار ، واستحل مالم يحل بعد صالح ولا لنبى مرسل .

« ثم يُجلس حبابة عن يمينه وسلامة عن شماله تغنيانه بمزامير الشيطان ، ويشرب الخمر الصراح المحرمة نصاً بعينها ، حتى إذا أخذت مأخذها فيه ، وخالطت روحه ولحمه ودمه ، وغلبت سورتها على عقله ، مزق حليته ثم التفت إليهما فقال : أتأذنّ لى أن أطير ؟ نعم ! فطار إلى النار إلى لعنة الله حيث لا يدرك الله » .

— ٥ —

المهديون من غير آل البيت

(انظر ص ٥٩ ، ٦٢) (ص ١١٦ ، ١٢١ من الترجمة)

روى ابن سعد حديثاً جاء فيه أن موسى بن طلحة هو المهدى المنتظر ، وقد أشرنا إليه عند كلامنا على الهرج . وإلى القارىء نص هذا الحديث نقلا عن ابن سعد (الطبقات God. Goth. 1748 f. 1082 suiv.) :

(عن) « خالد بن سمير قال : قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة ، فهرب منه وجوه أهل الكوفة . فقدموا علينا هؤلاء البصرة وفيهم موسى بن طلحة ابن عبيد الله ، وكان الناس يرونه فى زمانه هو المهدى . قال فغشيه ناس من الناس ، وغشيته فيمن غشيه ، فاذا شيخ طويل السكوت قليل الكلام طويل الحزن والكآبة إلى أن قال يوماً : والله لأن أكون أعلم أنها فتنة لها انقضاء أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا وأعظم الخطر . فقال رجل من القوم :

يا أبا محمد ! ما الذى ترهب وأشد أن تكون فتنة ؟ قال : أرهب الهرج .
قال وما الهرج ؟ قال : الذى كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يحدثون : القتل بين يدى الساعة لا يستقر الناس على إمام حتى تقوم الساعة
عليهم : وهو كذلك وأيم الله ، لئن كان هذا لوددت أنى على رأس جبل
لا أسمع لكم صوتا ولا أرى لكم داعياً حتى يأتينى داعى أبى . قال : ثم
سكت ، ثم قال : يرحم الله عبد الله بن عمر أو أبا عبد الرحمن ، إما سماه وإما
كناه . إنى لأحسب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى عهد إليه
لم يفتن ولم يتغير . والله ما استقر به قريش فى فتنتها الأولى . فقلت فى نفسى
إن هذا ليزرى على أبيه فى مقتله قالوا وتحوَّل موسى بن طلحة إلى الكوفة
ونزلها وهلك بها »

وقد ذكر ابن حجر (ج ٣ ص ٩٩٠ ، ٩٩٦) أن موسى بن طلحة هو
المهدى . كذلك ورد حديث الهرج فى « الفائق » للزمخشرى .
وقد جاء فى تلك الأحاديث التى نقلها عن ابن سعد أن عمر بن عبدالعزيز
هو ذلك الرجل الذى سيملأ الأرض عدلا .

(عن) « جويرة بن أسماء عن نافع قال عمر بن الخطاب : ليت مَن ذوالشين
من ولدى الذى يملأها عدلا ؟ . (عن) نافع عن ابن عمر قال : كنت أسمع
ابن عمر كثيراً يقول : ليت شعرى من هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة
يملأ الأرض عدلا ؟ قال ابن عمر : إنا كنا نتحدث أن هذا الأمر لا ينقضى
حتى يلى هذه الأمة رجل من ولد عمر يسير فيها بسيرة عمر بوجهه شامة .
قال فكنا نقول هو بلال بن عبد الله بن عمر وكانت بوجهه شامة . قال حتى
جاء الله بعمر بن عبد العزيز وأمه أم عامر بنت عامر أم عمر بن الخطاب . قال
يزيد ضربته دابة من دواب أبيه فشجته . قال : فجعل أبوه يمسح الدم ويقول
سعدت إن كنت أشجَّ بنى أمية . وأخبرنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى
قال ياعبد الجبار بن أبى معن ! قال : سمعت سعيد بن المسيب وسأله رجل فقال:

يا أبا محمد ! من المهدى ؟ فقال له سعيد أدخلتَ دار مروان ؟ قال : لا . قال
فأذن عمر بن عبد العزيز للناس فانطلق الرجل حتى دخل دار مروان فرأى
الأمير والناس مجتمعون . ثم رجع إلى سعيد بن المسيب وقال : ياأبا محمد !
دخلتُ دار مروان فلم أر أحداً أقول هذا المهدى . فقال سعيد بن المسيب وأنا
أسمع : هل رأيت الأشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير ؟ قال نعم ! قال
فهو المهدى : (عن) مسلمة بن عبد العزيز قال : سمعتُ العرزمى يقول : سمعتُ
محمد بن على يقول النبى ما زال منا والمهدى من بنى عبد شمس ولا نعلمه إلا
عمر بن عبد العزيز . قال وهذا فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، أخبرنا مسلم بن
ابراهيم قال . حدثنى أبو بكر بن الفضل بن المؤتمر العكى قال : حدثنى
أبو يعقوب مولى لهند بنت أسماء قال : قلت لمحمد بن على إن الناس يزعمون
أن فيكم مهديا ، فقال إن ذاك كذاك ولكنه من بيت عبد شمس ، قال كأنه
عَنى عمر بن عبد العزيز » .

أنظر الطبرى (٢ : ١٣٦٢ س ١٢ وما يليه واليعقوبى طبعة Houlsma
ج ٢ ص ٣٦٩ س ٢) .

— ٦ —

سليمان بن كَثير والكفيَّة

كتاب المقفى الكبير للمقريزى مخطوط ، المكتبة الأهلية بباريس ،
ورقة ٨٠ ب .

وكان سليمان بن كثير الخزاعى من النقباء . فلما قدم أبو جعفر أخو أبى
العباس على أبى مسلم قال له : إنا كنا نحب تمام أمركم وقد تم بحمد الله ونعمته
فاذا شئتم قلبناها عليه . وكان محمد بن سليمان بن كثير خداشيا فكره تسليم
أبيه الأمر إلى أبى مسلم . فلما ظهر أبو مسلم وغلب على الأمر قتل محمدا ثم

أتى سليمان الـكفية وهم الذين بايعوا على أن لا يأخذوا مالا وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ، ويدخلون الجنة . ويقال إنهم أعطوا كفًّا من الحنطة فسموا الـكفيّة . وقال لهم حفرنا نهراً بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء يعنى أبا مسلم . فبلغ قوله أبا مسلم ، فاستوحش منه وشهد عليه أبو تراب الداعية ومحمد بن علوان المروروذى وغيرهما فى وجهه بأنه أخذ عنقود عنب وقال اللهم سوِّد وجه أبى مسلم كما سودت هذا العنقود. واسق دمه . وشهدوا أن ابنه كان خداشيا وأنه بال على كتاب الإمام . فقال أبو مسلم لبعضهم : خذ به وألحقه بخوارزم . وكذلك كان يقول لمن أراد قتله ، فقتل سليمان ابن كثير .

ولم ترد هذه المعلومات الشائقة المفصَّلة وتلك النبذ الجزئية الصغيرة فى كتب الـكثيرين من مؤرخى العرب . وقد انفرد المقريزى بذكر بعض شذرات منها فى كتابه « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » (طبعة Voss ص ٥٢) . ومما يؤسف له أن المقريزى لم يشر إلى أى مصدر من المصادر التى نقل عنها تلك المعلومات . وليس بعيداً أن يكون المؤرخون المعاصرون للدولة العباسية قد حذفوا من كتبهم كل ما عساه أن يغضّ من شأن هذه الدولة ، من تلك النبذ والأخبار التى لم يعد يخشى المؤرخون المعاصرون للمقريزى فى ذكرها جانب العباسيين .

فهرس الـكتاب

١ — الفهرس العربى

أ

ت

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

٢ — الفهرس الإفرنجى

تصويب الأخطاء

نعتذر للقارئ عن وقوع بعض أغلاط مطبعية نوردها هنا مع إصلاحها

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٠	عسابا	عسانا
٨	١٦	حملس	حماس
٨	١٧	العصوبات	الصعوبات
١٠	١٠	الإنتشار	انتشار
١٢	١٨	الإسلام	إلى الإسلام
١٧	٤	عليها	على العرب
٢٢	١٥	ما ارتكبه	ما ارتكب
٢٨	٢٣	أو النظام	أن النظام
٢٨	٢٤	إلى فون	إليه فون
٣١	١٢	فى الابقاء	فى سبيل الابقاء
٥٩	٣	الأعيات	الأعطيات
٦٣	١٨	ألنى	النبى
٦٤	١٣	بالفعة	بالعفة
٧٤	٨	بينه	بينهم
٨٢	١٤	على	عن
٨٣	١٦	عندك	عندى
٨٤	١	الذى	التى
٩٠	١٢	فقاؤهم	فقهاؤهم
٩٠	١٣	الذين	الدين
٩٠	١٧	استهمل	استمهل
١١٢	٢١	Wiiseien-feld	Wiistenf-eld
١٢٣	١٧	غياطها	غياطلها
١٢٩	٤	رهنية	رهينة
١٣٠	٩	الدننورى	الدينورى
١٣١	١١	بالميثاق	بانبثاق
١٢٨	٢١	هنالا	هناك
١٤٠	٢٨	بالمحاسن	أبو المحاسن